الفصل السادس

عودة إلى الأسئلة

السؤال الخامس:سألتنى ابنتى الكبرى فى مرة أخرى من مرات تجولنا معًا، كانت بعد ظهيرة خريفية باردة ومنعشة. أعتقد بأننى كنت أذكر شيئًا ما لجميلة عن القرآن، عندما قاطعتنى: «**أبى، أفهم أنك كانت لديك أسئلة معينة عندما كنت ملحدًا تنكر الله، ولم تكن تملك إجابات لها، وأنك وجدت إجاباتها عندما قرأت القرآن. لكننى لا زلت غير قادرة على رؤية ما الذى جعلك تتحول إلى الإسلام؟**»

سألتها: «ماذا تعنين بذلك؟» وبدأت خطواتنا فى التثاقل.

«**أنا أقصد أن عدم وجود مزيد من الدلائل لديك ضد الله، لا يبرهن على أن الله موجود**» أجبتها بابتسامة إعجاب مقتضبة: «هذه بصيرة رائعة. لم أتوقع مثل ذلك من شخص فى مثل عمرك» كان التفسير الذى أعطيته لها حول كيفية تحولى للإسلام متمشيًا مع نفس خطوط ما ذكرته فى الجزء السابق. شرحت لها أنى أصبحت أكثر انفتاحًا على احتمالية وجود الله، وبدأت فى التعرض لخبرات روحانية مركزة أثناء قراءتى للقرآن».

فسألتنى: «**وما الذى جعلك تظن أنها جاءت من عند الله؟**».

أخبرتها: لم أعتقد فى البدء أنها كذلك. بعدها بدأت أتشكك فى أنها كذلك. ثم فكرت أنها ربما تكون من عند الله، ثم عرفت أنها من عنده. بعد ذلك بفترة عرفت فحسب الذى يصدرها إلىّ. كان الأمر كما لو كنت أعرف الله على الدوام، لكن انتباهى تشتت إلى حَدٍّ ما، أو عانيت من نوع من العاهة الروحية وغشانى النسيان. يشبه الأمر الخروج من حالة من فقدان الذاكرة. أعتقد أننا نملك هذا الإحساس الأساسى والطبيعى والروحى بالله، لكننا نتجاهله أو ننكره أو لا نثق فيه فى النهاية. هل ما أقوله مفهومًا لديك؟

نظرت ابنتى إلىّ نظرة من خلال عينيها الواسعتين والجميلتين ذواتى اللون البنى قائلة: «**أبى، هذا أضعف ما سمعت فى حياتى**».

سألتها وأنا أشعر بالانكماش : «لماذا تقولين ذلك؟»

قالت : «**لأننى أعلم بأننى لا أعرف الله على الإطلاق. ليس لدى إحساس طبيعى بالله**» .

واصلنا السير معًا . وشعرت بمدى غبائى حين قدمت لها هذا التفسير . إننى فشلت حتى فى الفهم الكامل لمرحلة انتقالى من الرفض إلى الشك إلى الإيمان ، فكيف يتسنى لى أن أكون مقنعًا فى هذا الصدد لفتاة تبلغ الحادية عشرة من العمر؟ إنها لم تحيا وتكتسب من الخبرة ما يكفى لفهم ما كنت أقوله . وحتى لو كان لها من العمر أكبر من ذلك ، فكيف يكون ممكنًا لها إقامة علاقة سببية بذلك إذا لم تكن قد حازت هذه الخبرة على الإطلاق؟هل كنت أعرف الله عندما كنت في عمرها؟ هل كان لى وعى طبيعى بوجوده؟ كل ما فى مقدورى تذكره هو أننى عندما كنت صغيراً داومت على التوسل إلى الله بأن يأخذ أبى بعيدًا عنا . عندها فكرت فى شىء آخر :

جميلة ، هل تذكرين ذلك اليوم الذى أخذتنى فيه عربة الإسعاف إلى المستشفى فى يوليو الماضى؟ .

نعم . قالتها وهى تنتظر فى حيرة .

هل تذكرين كيف كنت مربوطًا بهذا الكم الكبير من الأسلاك والأنابيب ، وعندما وضعونى على المحفة ليحملونى خارجين إلى عربة الإسعاف ، وكنت عاجزًا عن الحركة أرتعش وأجد صعوبة فى التنفس؟ .

نعم . ردت فى أسى .

وهل تذكرين كيف كنت واقفة إلى جوارى سائلة إياى بصوت مرتعش إذا ما كنت سوف أموت؟ .

نعم . أجابت وقد اغرورقت عيناها بالدموع .

بعدما نقلونى إلى المستشفى ، هل صليت لله فى أى وقت فى ذلك اليوم ليلاً أو نهارًا بأن لا يترك أباك للموت ، وأن يبقيه حيًا؟ هل طلبتى العون من الله؟

نعم . قالتها مع قليل من السخط ، وربما متعجبة من سبب تواصل مضايقتى لها .

هل صليت لله فى اليوم التالى؟

نعم . قالتها بنبرة تشابه نبرة شاهد متقاعس داخل قاعة محكمة .

وفى اليوم الذى أعقب اليوم التالى؟

نعم . قالتها بصوت يتوسل إلىّ أن أتوقف .

إذن من الذى علمك كيف تصلين بهذا الأسلوب؟ من الذى علمك كيف تخاطبين الله؟

صمتت مترددة لبرهة ، وربما كانت تبحث عن إجابة .

أنت الذى علمتنى كيف أؤدى الصلاة وكيف أدعو؟ أجابت فى نبرة يشوبها فقدان الثقة بالنفس .

لست أتكلم عن كيفية أداء الصلاة المكتوبة باللغة العربية . أنا أعنى من الذى علمك كيف تخاطبين الله ، وأن تتواصلى معه على المستوى الشخصى؟ هل أنا أو أى شخص آخر قد أخبرك بما يتوجب عليك تصوره وأنت تخاطبين الله ، وما عليك من التفكير فيه من كلمات تريدين قولها داخل عقلك ، ثم يتلقاها منك الله ويسمعها؟

لا

هل أنا أو أى شخص آخر قد أجرى أمامك بيانًا عن كيفية مخاطبة الله؟

لا

هل أنت متأكدة؟

نعم

ربما تكون أمك أو إحدى جداتك أو عماتك أو أحد أخوالك قد علمك ذلك؟

لا

إذن من الذى علمك؟ كيف وصلت إليك المعرفة بفعل ذلك بهذه التلقائية الشديدة؟

لم يعلمنى أحد! قالتها بإصرار، أنا أعرف فحسب.

جعلتنى نظرة الخذلان التى ارتسمت على وجهها أتمنى لو أننى لم أذكرها بذلك اليوم؛ بسبب أنه لا وجود لأى أحد فى العالم أرغب فى عدم إيذائه أكثر منها.

تابعت قائلاً: حسنًا، ربما يكون لديك وعى طبيعى بوجود الله- ربما كان هوالسبب فى كيفية معرفتك بذلك. وعلى أية حال، مثل ذلك الأمر نفسه بالنسبة إلىّ. بعد فترة من الزمن عرفت فحسب بأن الله كان هو الذى أتانى من خلال آيات القرآن، ومن خلال حصول لحظات الروحانية. استغرقت بعض الوقت لإدراك ذلك- وربما يعود الأمر فى ذلك إلى أننى كنت فاقدًا لفترة طويلة للوعى الروحى- لكننى بعد برهة عرفت فحسب.

***

السؤال السادس: (جاءنى هذا التساؤل من سيدة فى نهاية العشرينيات من عمرها وهى لا أدرية من الجيل الثانى. تعمل هذه السيدة كباحثة طبية. كنت قد تلقيت العديد من الأسئلة المشابهة لهذا السؤال من شباب وشبات منحدرين من آباء وأمهات باكستانيين وهنود):

«لماذا تعتبر عبادة الأصنام من الخطأ فى غاية؟ لا وجود لأحد يؤمن بأن الأصنام فى ذاتها هى الله إنها مجرد تمثيل لمساعدة الإنسان، وأنهم (عبّاد الأصنام) يجدون الله فى كل شىء حى وكل شىء غير حى. كيف نعتبرهم أضعف إيمانًا؟ ليست المنافسة بين خالق متجسد وآخر غير متجسد. إنهم يحاولون فحسب الحصول على مستوى فكرى دنيوى ومادى يمثل الواحد غير المتجسد. أنا لا أرى أى خطأ فى ذلك الأمر؟».

***

يبدو أن السؤال يتحدث عن الهندوسية بسبب إشاراته إلى إقامة «تمثيل لمساعدة الإنسان» وإلى إيجاد «الله فى كل شىء حى وكل شىء غير حى»، و«الخالق غير المتجسد» و«الواحد غير المتجسد». إن الديانة الهندوسية هى نظام ذو أوجه عديدة وغاية فى الاتساع، ويتطلب معرفة عنه أكبر بكثير مما لدى، وما يزيد كثيرًا عن عدة

صفحات؛ لكى نكون منصفين تجاه التساؤل[1]. وفى حين أننى أعترف بعدم أهليتى للحكم على الهندوسية، لكننى أشعر بأنه يتوجب علىّ أن أذكر على الأقل بضع كلمات إضافية حول انتقاد القرآن «لعبادة الأصنام»، حيث يمثل هذا الأمر واحدًا من موضوعات القرآن الرئيسية. القول بأن القرآن يحرّم عبادة الأصنام هو قول مبتور وتبسيط مخل. ما يعارضه القرآن هو الشرك (عادة ما تترجم إلى الإنجليزية بمعنى عبادة الأصنام)، والشرك يحمل مفهومًا أوسع بكثير. ترتبط كلمة «الشرك» مع الفعل «شارك» فى اللغة العربية أى اتخاذ شريك، أو جعل شخص أو شىء مرتبطًا بآخر، أو ربط شىء بشىء آخر. وهى تعنى فى القرآن إعطاء آخرين نصيبًا فى ألوهية الله وعظمته. والشرك فى أسوأ تجلياته قد يأخذ شكل تعظيم الموضوعات وصولاً إلى تأليهها وإلى حد عبادتها، مثل ما يحدث مع صور منقوشة أو كائنات سماوية، وقد يتضمن الأمر أيضًا آلهة من اختراعنا. ويتحدث القرآن عما يخص النوع الأخير إلى مشركى العرب ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا ﴾ [النجم: ٢٣][2]. وقد تمثل الأصنام فى بعض الأحيان مواهب بشرية بذلك عبد المشركين ودًا وسواعًا ويغوث ويعوق ونسرًا أيام بعثة النبى، وهى أصنام تمثل الفحولة والجمال والقوة البهيمية والرشاقة (أو مثال الرياضة البدنية) ونفاذ الرؤية (أو البصيرة) على الترتيب [نوح: ٢٣][3]. وقد تمثل الأصنام أو الآلهة كينونات روحية أيضًا، أو أنبياء أو أولياء ماتوا من قبل، حيث ترتجى شفاعتهم. اعتاد الوثنيون العرب على سبيل المثال تخيل أن الملائكة هم من الإناث وكانوا يدعونهم

---

(١) يتوجب علىّ إبراز أن معظم الهندوس من أهل المعرفة يعترضون على مساواة عبادة الصورة التى تحدث فى الهندوسية بعبادة الأصنام (عبادة شىء مجسم بوصفه إلهًا) لذلك يكتب ك. م سين فى الهندوسية «لاوجود لتعارض داخل الفلسفة الهندوسية بين الإيمان بالله مطلق الوجود والباطن والمهيمن وبين «البوجا» وهى عبادة أصناف مختلفة من الأرباب والربات من آلهة الهندوسية. قد تساعد صور الآلهة على تركيز الانتباه خلال الشعائر الدينية، لكنهم لا يمثلون من الناحية النظرية إلا ما لا يزيد عن أشكال تخيلية تمثل المظاهر اللانهائية لله المتخلل فى الوجود كله».

(٢) نص الآية كاملاً يقول: ﴿ إِنْ هِيَ إِلاَّ أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَى ﴾ [النجم: ٢٣]. انظر أيضًا [يوسف: ٤٠].

(٣) قد يعنى انتقاد القرآن لهذه الآلهة العربية أنه انتقاد أيضًا للميل الإنسانى الشائع نحو تأليه هذه المواهب التى للرجال وللنساء.

التماسًا لشفاعتهم، كما يصلى كثير من المسيحيين لعيسى ومريم، والقديسون الآخرون مؤمنون بأن فى مقدور هؤلاء التوسط بينهم وبين الله. يرفض القرآن هذه الأفكار؛ لأنه يؤكد على أن الأموات لا يعون ما يحدث على وجه الأرض وأنهم لا يقدرون على الاستجابة لصلوات أحد أو لدعواته [1]، وبسبب أن جموع الملائكة ليست إلا وسائط روحية بيد الله لا تقدر إلا على طاعة أوامره. علاوة على ذلك، يشدد القرآن على أنه طالما أن الله هو مطلق العدل والرحمة بما لا يقارن به مخلوق من مخلوقاته، فلا ضرورة لوساطة أو لشفاعة[2]. يبين القرآن أيضًا أن الشرك قد يأخذ أشكالاً من عبادة الأحياء من الناس مثلما كان الحال مع القدماء المصريين والفراعنة. ويضرب القرآن الأمثلة عن الذين يجعلون من نجاحاتهم الدنيوية إلهتهم، وعن آخرين يجعلون إلههم هواهم وشهواتهم. يقول القرآن عن الصنف الأخير ﴿أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ﴾ [3].

وبغض النظر عن تجليات الشرك المتعددة، فإن العنصر المشترك بين مجمل أنواع الشرك هو عبادة ما سوى الله، خاصة إذا ما تذكرنا أن العبادة فى القرآن تعنى التسليم الكامل للآخر؛ لذلك فإن الشرك هو بمعنى أو بآخر يتضمن تسليم النفس أو إضفاء سلطة مطلقة على أحد أو على شيء حقيقيًا كان أم متخيلاً سوى الله، لذلك، فعندما يتيح السياسيون للاهتمامات والمصالح القومية أو المالية أو السياسية أو العسكرية أن تتقدم على الاهتمامات المعنوية أو الأخلاقية، فإنهم يقترفون بذلك شكلاً من أشكال الشرك. وينسحب القول نفسه على أولئك الذين يرفضون أن يضعوا فى اعتبارهم مراجعة موقفهم الدينى خوفًا من أن يفسد ذلك عليهم تقاليدهم أو أوضاعهم الاجتماعية [الأعراف: ٧٠] [4].

---

(١) [المائدة: ١٠٩]، [النحل: ٢١].

(٢) على سبيل المثال، وفيما يتعلق بالإيمان المسيحى بنبوة عيسى لله، يقول القرآن: ﴿سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلًا﴾ كلمة وكيل تعنى حرفيًا «الممثل القانونى» أو «الشخصى الذى يدافع عن حق آخر أو عن مصالحه». وفى العربية المعاصرة يطلق على مستشار الدفاع أو المحامى لفظ «الوكيل» يعنى ذلك أن الله لا يحتاج إلى ابن للوساطة بينه وبين خلقه، كما لا يحتاج إلى خلق «مخلص» فى هذا الصدد، انظر أيضًا [مريم: ٨٨-٩٣]، [الأنبياء: ٢٦].

(٣) [الفرقان: ٤٣]، [الجاثية: ٢٣]

(٤) أيضًا [يونس: ٧٨]، [هود: ٦٢]، [هود: ٧٨]، [لقمان: ٢١]، [الزخرف: ٢٢-٢٣].

ومثلما يظهر القرآن، لايتضمن الشرك فى معظم أحواله إنكاره الله بوصفه الموجود الأعظم والمطلق، لكن بدلاً من ذلك فعادة ما يتضمن اتخاذ شركاء لله يكونون محلاً للإيمان بقدرتهم على التصرف بوصفهم مصادر إضافية ذات سلطان على الهداية الإلهية. وفى الأغلب الأعم ما يصار إلى إضفاء هذا الدور على الزعماء الدينيين ورجال الدين. لذلك ينص القرآن على أن اليهود والنصارى قد ﴿اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾[التوبة: ٣١]

يمثل إشاعة المعاصى والخطايا وإلباس ذلك ثوبًا دينيًا واحدة من أشد أنواع الشرك خبثًا وإهلاكًا. لقد استخدم بعض الصهاينة التوراة للدفاع عن طردهم للفلسطينيين من أرضهم. وكان إدراك المستوطنين الأوروبيين بأنهم أصحاب مهمة مقدسة إلهية قد استخدم كذريعة لإضفاء الشرعية على ترحيل سكان أمريكا الأصليين، والذين نعتوهم بوصف «القوى الشيطانية»، شنت اليابان حربًا ضروسًا ضد الصين باسم «هيروهيتو» الإمبراطور سليل الآلهة[1]، كما أشاع بعض المحاربين من المسلمين المعاصرين قتل المدنيين باسم الله، وقد عذبت الكنيسة وأعدمت «المهرطقين» خلال محاكم التفتيش. وفى الجزيرة العربية خلال القرن السابع، كانت الأطفال تقدم فى بعض الأحيان كقرابين على مذابح الآلهة المتنوعة من أجل الفوز برضائها. كل ذلك على سبيل المثال وليس الحصر. لكننى أعتقد بأنه من المأمون القول بأنه لم تكن هناك حصانة لدين ضد هذا النوع من الشرك.

وحيث إن الشرك يجعل استسلام النفس لله ذابلاً وخافتًا، يحذر القرآن من القول على الله بغير علم، والذى قد يقود إليه ﴿قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لا تَعْلَمُونَ﴾ [الأعراف: ٣٣] وحتى لو بدا الابتداع فى الدين بحسن نية، فإنه فى النهاية قد يتحول إلى عقبة فى طريق التوحيد لله، يقدم القرآن هذا المثال الصارخ.

(١) يبدو أن «هيروهيتو» كان له موقف مضاد للهجوم على الصين، لكنه لم يعارض الحرب لأسباب سياسية، وأعلن على الملأ فى عام ١٩٤٦م مفهوم أنه سليل الآلهة، ويحظى بالقداسة.

﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ عُزَيْرٌ ابْنُ اللَّهِ وَقَالَتِ النَّصَارَى الْمَسِيحُ ابْنُ اللَّهِ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ يُضَاهِئُونَ قَوْلَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن قَبْلُ قَاتَلَهُمُ اللَّهُ أَنَّىٰ يُؤْفَكُونَ ﴾ [التوبة: ٣٠].

تستخدم كلمة «ابن الله» داخل التراث اليهودى، حيث وردت مرات عدة فى سياق العهد القديم بوصفها مجازًا يأتى للتعبير عن العلاقة الوثيقة بالله[١]. بالنسبة لمعظم المسيحيين فإن «ابن الله» عندما يوصف بها عيسى المسيح فإنها تحدد حالته الفريدة بوصفه ابن الله، وهو الأقنوم الثانى من أقانيم الله الثلاثة. يوضح ذلك كيف تتحول عبارة استخدمت فى الأصل للتعبير عن مفهوم حميد لتصبح واقعيًا حجر الأساس داخل عقيدة يقول عنها القرآن بأنها تنتقص من الوحدانية[٢]. من المهم الإشارة إلى أن القرآن لا ينص على ماذا يعنى اليهود والمسيحيون بهذا التعبير، حيث إنه قد يحمل مختلف التفسيرات. يشدد القرآن عوضًا عن ذلك على ما يقولونه فقط ﴿ ذَلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَاهِهِمْ ﴾ [التوبة: ٣٠] حيث إن التعبير «أبناء الله» جاء قائمًا على غير أساس ومقاربًا إلى «قول الذين كفروا من قبل» وهكذا فإنه قد يقود إلى العبادة غير الصحيحة. ويرفض القرآن تأسيسًا على القواعد نفسها استخدام كلمة «ثلاثة» عند التحدث عن طبيعة الله.

﴿ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ وَلا تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ إِلاَّ الْحَقَّ إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَىٰ مَرْيَمَ وَرُوحٌ مِّنْهُ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَلا تَقُولُوا ثَلاثَةٌ انتَهُوا خَيْرًا لَّكُمْ إِنَّمَا اللَّهُ إِلَهٌ وَاحِدٌ سُبْحَانَهُ أَن يَكُونَ لَهُ وَلَدٌ لَّهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ وَكِيلاً ﴾ [النساء: ١٧١].

﴿ لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلاَّ إِلَهٌ وَاحِدٌ ﴾ [المائدة: ٧٣].

﴿ قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِن قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَن سَوَاءِ السَّبِيلِ ﴾ [المائدة: ٧٧].

(١) قاموس اليهودية فى المرحلة التوراتية، «سيمون وشوستر»، نيويورك، ١٩٩٦م، ص٥٩٦ -٥٩٧.

(٢) لا يوافق القرآن أيضًا على عبارة «أبناء الله» حيث إنه من الممكن أن يفهم منها الانفراد بالحب من جانب الله ﴿ وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَىٰ نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحِبَّاؤُهُ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ يَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَلِلَّهِ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا وَإِلَيْهِ الْمَصِيرُ ﴾ [المائدة: ١٨].

تشير هذه التحديرات إلى ان القول على الله بغير علم فى الدين والدى على شاكلة الشرك، وبغض النظر عن نواياه الأصلية، غالبًا ما ينتهى ليصبح انحرافًا عن الله. ويمكن استخراج الدرس نفسه من الآية القرآنية التى تتحدث عن العجل الذهبى، عندما أجبر بنو إسرائيل على تدمير التمثال الذى صنعوه، على الرغم من أن نيتهم وراء صنعه كانت لكى يمدهم بتمثيل لله الواحد «إله موسى» ﴿قَالَ فَإِنَّا قَدْ فَتَنَّا قَوْمَكَ مِنْ بَعْدِكَ وَأَضَلَّهُمُ السَّامِرِيُّ (٨٥) فَرَجَعَ مُوسَىٰ إِلَىٰ قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ يَا قَوْمِ أَلَمْ يَعِدْكُمْ رَبُّكُمْ وَعْدًا حَسَنًا أَفَطَالَ عَلَيْكُمُ الْعَهْدُ أَمْ أَرَدْتُمْ أَنْ يَحِلَّ عَلَيْكُمْ غَضَبٌ مِنْ رَبِّكُمْ فَأَخْلَفْتُمْ مَوْعِدِي (٨٦) قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَارًا مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ (٨٧) فَأَخْرَجَ لَهُمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُوَارٌ فَقَالُوا هَذَا إِلَهُكُمْ وَإِلَهُ مُوسَىٰ فَنَسِيَ (٨٨) أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا (٨٩) وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَٰنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي (٩٠) قَالُوا لَنْ نَبْرَحَ عَلَيْهِ عَاكِفِينَ حَتَّىٰ يَرْجِعَ إِلَيْنَا مُوسَىٰ (٩١) قَالَ يَا هَارُونُ مَا مَنَعَكَ إِذْ رَأَيْتَهُمْ ضَلُّوا (٩٢) أَلَّا تَتَّبِعَنِ أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي (٩٣) قَالَ يَا بْنَؤُمَّ لَا تَأْخُذْ بِلِحْيَتِي وَلَا بِرَأْسِي إِنِّي خَشِيتُ أَنْ تَقُولَ فَرَّقْتَ بَيْنَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَلَمْ تَرْقُبْ قَوْلِي (٩٤) قَالَ فَمَا خَطْبُكَ يَا سَامِرِيُّ (٩٥) قَالَ بَصُرْتُ بِمَا لَمْ يَبْصُرُوا بِهِ فَقَبَضْتُ قَبْضَةً مِنْ أَثَرِ الرَّسُولِ فَنَبَذْتُهَا وَكَذَلِكَ سَوَّلَتْ لِي نَفْسِي (٩٦) قَالَ فَاذْهَبْ فَإِنَّ لَكَ فِي الْحَيَاةِ أَنْ تَقُولَ لَا مِسَاسَ وَإِنَّ لَكَ مَوْعِدًا لَنْ تُخْلَفَهُ وَانْظُرْ إِلَىٰ إِلَٰهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفًا لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفًا (٩٧) إِنَّمَا إِلَٰهُكُمُ اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَسِعَ كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾ [طه: ٨٥، ٩٨].

ومثلما أوضحنا من قبل، يمكن للشرك أن يتخذ أشكال وهيئات عديدة، لكن من وجهة نظر القرآن فإنه ضار على الدوام وعلى الإطلاق، من حيث إنه يحقن الزيف فى عروق الدين، ويضع الباطل فى النهاية فى الصف الأول تحت الضوء[1]. وعندما يحصل ذلك تنمو الشكوك وينمو النزوع نحو الشك بين المخلصين متسببًا فى فقدان الدين لجاذبيته العقلية ومعها لسلطته المعنوية وسلطانه

(١) ﴿وَقُلْ جَاءَ الْحَقُّ وَزَهَقَ الْبَاطِلُ إِنَّ الْبَاطِلَ كَانَ زَهُوقًا﴾ [الإسراء: ٨١].

الروحى. المثال الأكثر وضوحًا الذى يقدمه القرآن عن هذا النوع من انتقاص الإيمان وتآكله هو مثال أهل قريش من الوثنيين، وحملة لواء المعارضة الرئيسية للنبى من أهله وأقاربه. يذكرهم القرآن بأن أجدادهم الأتقياء وعلى رأسهم إبراهيم وإسماعيل كانوا من الموحدين الخالصين وخصصوا الكعبة فى مكة لعبادة الله. ومع كر الدهور والعصور أصبحت عقيدة التوحيد التى تركوها مطموسة بشكل شبه كامل بعقيدة تعدد آلهة قحة إلى الدرجة التى أفقدت القرشيين أنفسهم الثقة فيها، كما سمحت هذه العقيدة بالفساد، وأعلنت عنه.

اتخذت عقيدة تعدد الآلهة لدى قريش فى القرآن بوصفها المثال الجلى على تأثير الشرك الموهنة للدين، لكن القرآن يظهر من خلال نقاشه عن العقيدة الدينية فى الماضى وفى الوقت المعاصر له، أن هذه المشكلة تتسم بالعالمية. لم تتوجه تحذيرات القرآن ضد الشرك تجاه غير المسلمين فقط ولو بشكل رئيسى، لكن يتوجب على المسلمين أيضًا أن يكونوا على تمام اليقظة ضد إشراك ما ليس بإله مع الله. ومثلما يبين القرآن فى أحيان كثيرة فإن معظم ما ارتفعت دعاواه باسم الله خلال التاريخ، ليس له سلطان إلهى، وليس إلا اختراعًا إنسانيًا مطلقًا. ينبغى على المسلمين أن يكونوا فى تمام الوعى بألاّ يخلطوا بين السلطان الإلهى وما هو تراث ثقافى، وما هو اجتهاد دينى وآراء فقهية لا تملك الدليل الشرعى المتفق عليه من الوحى. وبالتأكيد لا بد من وجود مثل هذا الأمر داخل كل دين. ستظل أمم الإيمان فى تنمية التراث الخاص بها، وعلى الاستجابة الداعية الخلاقة للجديد من المشاكل التى تواجهها، وسيظل العلماء والشيوخ يدلون بدلوهم من آراء وتنظير، لكن كل ذلك مجرد محاولات بشرية للتفسير، ولا ينبغى لها على الإطلاق أن ترتدى ثوب المثالية التى لا يرتقى إليها انتقاد.

﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ [يونس: ٥٩].

﴿ وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ﴾ [النحل: ١١٦].

السؤال السابع: (الأسئلة المتعلقة بالجبرية كثيرة. هذا السؤال أتى من مسلم أمريكى وهو طالب فى المرحلة الثانوية).

«فى خطبة الجمعة الماضية، قال الإمام: إن الله قد قدر علينا جميع أعمالنا بما فيها اختياراتنا، وإن كل من لا يؤمن بذلك فليس بمسلم. إذا كان الله قد قدر علينا جميع أفعالنا واختياراتنا، فلماذا إذن يعاقبنا عليها؟ لا يبدو هذا الأمر عادلاً بالنسبة لى. أنا خائف من أننى أصبحت ملحدًا!».

***

المذهب أو العقيدة التى تحدث عنها الإمام فى خطبة الجمعة يشار إليها فى الفكر الإسلامى بوصفها عقيدة «القدر»، وتوصف فى اللغة الإنجليزية عادة باسم «القضاء الإلهى» أو «الجبرية». مثلت هذه العقيدة موضوعًا لخلاف عظيم فى التاريخ المبكر للإسلام وفتحت الباب أمام مفاهيم مختلفة. يمثل قول الإمام ما عرف عن أشد أشكال هذه العقيدة غلوًا. لم تقبل جميع مذاهب الفكر فى التاريخ القديم مفهوم «الجبرية»، وكان الأبرز بين المعارضين الجماعة الذين عرفوا باسم «أهل الكلام» الذين تقدموا الصفوف فى القرون الأولى التى أعقبت الهجرة. كان أشد معارضيهم «أصحاب الحديث» الذين قبلوا بها (الجبرية) بشكل أو بآخر، على الرغم من أن الرؤية التى قال بها أمام الجامع الخاص بكم كانت على كثير من الغلو.

ويبدو أن بداية ربط «القدر» بالجبرية كانت تطورًا تدريجيًا داخل الفكر الإسلامى. لم تكن الجبرية معروفة لدى عرب ما قبل الإسلام، ووفقًا للمعجمى العظيم «راغب الأصفهانى» تعنى كلمة «القدر» ومرادفها «تقدير» (بيان وإظهار مبلغ شىء) «أو ببساطة مبلغ الشىء». ويواصل قوله «يظهر الله التقدير بأسلوبين: بأن يهب القدرة، أو يجعلها فى مبلغ معين وبطريقة معينة حسب مقتضيات حكمته»[1]. يتوافق تفسير الأصفهانى مع القرآن، حيث إن «قدر» و «تقدير» ترتبطان بتصميم الطبيعة وتنظيمها.

---

(١) الاقتباس يظهر فى ترجمة «عبد الحميد صديقى» لصحيح مسلم، مطابع أشرف، لاهور، ١٩٩٢م، ص١، فقرة ٣.

﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴿٣٨﴾ وَالْقَمَرَ قَدَّرْنَاهُ مَنَازِلَ ﴾ [يس: ٣٨، ٣٩].

﴿ إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ ﴾ [القمر: ٤٩].

﴿ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿١٨﴾ مِن نُّطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرَهُ ﴾ [عبس: ١٨، ١٩].

﴿ سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴿١﴾ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴿٢﴾ وَالَّذِي قَدَّرَ فَهَدَىٰ ﴾.

[الأعلى: ١، ٣][(١)].

تحمل كتابات التراث. أدلة على أن حدوث نقاش حول حرية الإرادة والجبرية ليس مبكرًا عن الثلث الأخير من القرن الهجرى الأول[(٢)]. وعلى سبيل المثال فمن المفاد أن «رسالة فى القدر» للحسن البصرى قد كتبت بناء على طلب من الخليفة «عبد الملك» (٦٥ - ٨٦هـ) ونصت على أن الخلاف حول القدر يشكل تطورًا جديدًا. ومن المثير للاهتمام أن الرسالة لم تفلح فى العثور على حديث نبوى محدد فى هذا الخصوص[(٣)]، على الرغم من الرغبة المعلنة من جانب «عبد الملك» بطلب «رواية عن أحد من أصحاب رسول الله»[(٤)].

---

(١) أيضًا ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ﴾ [الرعد: ٨]. ﴿ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَائِنُهُ وَمَا نُنَزِّلُهُ إِلَّا بِقَدَرٍ مَّعْلُومٍ ﴾ [الحجر: ١٢]. ﴿ الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلَمْ يَتَّخِذْ وَلَدًا وَلَمْ يَكُن لَّهُ شَرِيكٌ فِي الْمُلْكِ وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا ﴾ [الفرقان: ٢].

(٢) جوزيف فان ايس، «عمر الثانى ورسالته ضد القدرية» عبر النهرين (١٩٧١ - ١٩٧٢م): ص٢٠ وما يتبعها. «مايكل كوك» «عقيدة المسلمين الأوائل» (كامبريدج ١٩٨١م)، ١٠٧ - ١٥٨. «چون وانسبروا» «دراسات قرآنية» (أوكسفورد ١٩٧٧م). «دانيل بروان» «مراجعة فكرية للتراث فى الفكر الإسلامى الحديث» (كامبريدج ١٩٩٦)، ١١ - ١٢.

(٣) انظر الفصل الثانى، سؤال (١)، لمزيد من النقاش حول عقيدة القدر فى علم الحديث النبوى.

(٤) على الرغم من خلو الرسالة من أية أحاديث بخصوص حرية الإرادة والجبرية، فهناك الكثير من الأحاديث الصحيحة تتحدث عن أشكال مختلفة للجبرية موجودة داخل الكتب الصحاح. إذا كانت الرسالة أصلية، يصبح الأمر باعثًا على الحيرة بحق، خاصة لأن الحسن البصرى كان شخصية مهمة فى بداية علم الحديث، كما يظهر اسمه فى عديد من سلاسل النقل. أما إذا كانت الرسالة تاريخية، يصبح هناك العديد من الاحتمالات. فقد يكون الحديث عن الجبرية لم يحظ بالنقل إلا فى الثلث الأخير من القرن الإسلامى الأول أو حتى بعد ذلك، فى أعقاب حدوث السجال حول حرية الإرادة والجبرية. البديل الآخر أن «الحسن البصرى» لم يأخذ بالأحاديث التى تدعم مفهوم الجبرية؛ لأنها =

وعلى الرغم من أن ربط «القدر» بمعنى الجبرية من الواضح أنه لم يحدث إلا بعد زمن حياة النبى، فإن النقاش الذى ثار حول حرية الإرادة والجبرية كان متوقعًا. فمن ناحية يوضح القرآن بجلاء بأن الله وهب الرجال والنساء القدرة على الاختيارات - سواء أكانت أخلاقية أم غير ذلك - وكذلك على تنفيذ هذه الاختيارات فى معظم الأحيان وصولاً إلى نهاياتها المتوقعة. فى مقدور الله اعتراض هذه العملية أو التأثير عليها إذا أراد ذلك، لكنه يسمح للأشياء فى غالب الأمر بأن تتبع المسار الطبيعى لقانون السببية[1].

من جانب آخر يدعم القرآن ويعلى من الهيمنة المطلقة لله الذى تشمل معرفته كل الحوادث جميعها، بغض النظر عن موقعها أو موضعها داخل المكان أو الزمان.

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ ﴾ [الحج: ٧٦].

﴿ إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَّاذَا تَكْسِبُ غَدًا وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴾ [لقمان: ٣٤].

لذلك فإن كان الله يعلم كل شىء، إذن فإن المستقبل بما يحويه من اختيارات من صنعنا ينبغى لها بالفعل أن تكون قد أمْضيت. وقد يبدو من غير المفهوم أن فى إمكاننا إجراء اختيارات قد تتعارض مع علم الله بهذه الاختيارات. وبالمثل إذا كان الله يعلم ما سيكون عليه حالنا فى الدار الآخرة، فيتوجب على ذلك أننا قد أجبرنا إما على الجنة وإما على النار.

تؤدى هذه الادعاءات إلى الحيرة والارتباك، حيث إنها تتطلب احتضان وجهتى نظر مختلفتين اختلاف النقيضين: الإلهى والبشرى. تتعلق بالأمر أيضًا مشكلة أن

= تتناقض مع آرائه الخاصة. أو يكون الأمر ببساطة أن «الحسن البصرى» لم يكن على علم بالأحاديث المتعددة التى تؤيد الجبرية، لكن ذلك أمر بعيد الاحتمال.

(١) قد يجوز وصف الإمكانية الإنسانية على الاختيار وعلى وضع الاختيار موضع التطبيق بوصفها حرية إرادة محدودة. إنها محدودة مثلها مثل جميع الذوات المخلوقة؛ بسبب من اعتمادها على الله من أجل الوجود وأيضًا البقاء.

القولين غير كاملين؛ لأنهما لا يصرحان بدقة عمن هو الذى يفترض أنه فرض الجبر على المستقبل، ومتى حلّ القضاء بهذا الأمر. وحيث إننا نحلل هذه الادعاءات من منظور المسلمين، فمن البديهى أنهم يفترضون أن الله قد فرض الجبر على كل شىء. كما أن قضية زمن إبرام قضاء الجبرية هى الأخرى أقل وضوحًا، لكن يعتقد فى العادة أنها حدثت فى وقت ما قبل خلق الخلق.

يمكن عمل رسم تخطيطى للفرضية الأولى بأن هيمنة الله المطلقة تقتضى فرضه للجبرية على كل الحوادث كالتالى:

١- الله يعلم كل الأشياء جميعها.

٢- الله يعلم المستقبل.

٣- المستقبل ذو شكل ثابت (لا يتغير).

٤- الله فرض الجبرية على المستقبل.

إن من الأكثر منطقية القيام بتحليل هذا البرهان الخطى على مستوى مرحلى، بمعنى خطوة واحدة كل مرة. دعنا نفترض أن (أ) تمثل حدثًا فعلاً قد يحدث فى الغد، وعلى سبيل المثال قد تمثل (أ) حدثًا فعلاً يقول «اختار (چيفرى) أن يأكل بطاطس مقلية على العشاء». بذلك يصبح الرسم التخطيطى السابق على الوجه التالى:

١- الله يعلم كل الأشياء جميعها.

٢- الله يعلم أن الحدث/ الفعل (أ) سوف يحدث غدًا.

٣- الحدث/ الفعل (أ) سوف يحدث غدًا بالقطع.

٤- الله فرض الجبرية على الحدث/ الفعل (أ).

من البديهى أن الرابطة الأضعف فى هذه الجدلية هى الخطوة الأخيرة (٣)، (٤) لا يملى المنطق علينا ولا يفرض -ببساطة- إنه بسبب أن «چيفرى» سوف يختار أن يأكل بطاطس مقلية على العشاء فى الغد، فإن الله سوف يجبره على إنفاذ هذا

الاختيار. حقيقة أن حدثًا سوف يحدث بالقطع فى المستقبل لا تفرض ضرورة أن الله أجبره على أن يحدث. وفى الواقع يمكننا إزالة خطوة فى هذه الجدلية، حيث لا تقتضى الهيمنة الإلهية تكافؤية الخطوتين (٢)، (٣) أعلاه. بذلك تختزل الجدلية إلى التسلسل التالى للمقتضيات.

١- الله يعلم كل الأشياء جميعها.

٢- الله يعلم أن الحدث/ الفعل (أ) سوف يحدث غدًا.

٣- الله فرض الجبرية على الحدث/ الفعل (أ).

هنا أيضًا فإن اقتضاء (٢) ← (٣) غير مقنع ما لم نقبل بأن العلم بأن حدثًا ما سوف يحدث ينجم عنها بشكل ما ضرورة حدوثه، لكن لا وجود لسبب إجبارى يجعلنا نقبل بذلك، خاصة أن ذلك يجرى فى اتجاه معاكس لخبراتنا [لأنه كان من الممكن لچيفرى أن يأكل دجاجًا، أو حتى لا يتعشى نهائيًا]. قد نقبل الاقتضاء المعاكس - بأن حدوث حدث ما ينتج عنه العلم به، مع التسليم بوجود شاهد يشهده - لكن لا وجود لتبرير بقبول أن العلم بأن حدثًا ما سوف يحدث ينتج عنها حدوث هذا الحدث. قد ينتابنى إحساس حقيقى بأن جارى سوف يختار أن يستقل السيارة للذهاب إلى عمله فى الغد، لكن ذلك لا يقتضى أن علمى هذا قد تسبب فى وقوع الحدث. وحتى فى حالة العلم الإلهى، فلا وجود لسبب منطقى لاستخراج رابطة سببية بين أن الله خبير بحادثة ما وبين حدوثها. ونسوقها ببساطة، لا اتصال ولا علاقة بين العلم الإلهى وبين الادعاء بأن الله فرض الجبرية على اختياراتنا، ومن ثم على أحوالنا فى الحياة الآخرة. إن السببية فى «أن الله يعلم كل الأشياء جميعها، إذن يتوجب أن الله فرض الجبرية على كل شىء» هو القياس ذاته فى الجدلية «إذا كان لچيف عينان زرقاوان، إذن فهناك حياة على المريخ» ليس للقاعدة الفكرية أى أثر على الخلاصة والاستنتاج.

فى حين لا تقتضى الهيمنة الإلهية أن الله قد فرض الجبرية على مستقبلنا، فإنها لا تتعارض مع ذلك أيضًا. مع ذلك، فهناك تأكيدات أخرى فى القرآن تتناقض مع

عقيدة الجبرية[1]. أكثر بيانات القرآن بداهة هو أن الله هو مطلق العدل، حيث إنه من الصعب أن يبدو أن من العدل فرض الجبر على أحد بالدخول إلى النار لقاء أفعال واختيارات كان مجبرًا عليها أو كانت مجبرة عليها من قبل الله[2]. كان سريان العدل الإلهى بجاذبيته الأخاذة للحواس الإنسانية بما يناقض عقيدة الجبرية، هو الحجة الرئيسية لأهل الكلام. قاد ذلك الأمر بعضًا من المدافعين عن الجبرية التى تشكل نظرية عن الجبر والشر لم تعتمد على العقل الإنسانى ولا مدركاته. قالوا إن الخير هو ما أمر الله به وأن الشر هو ما نهى عنه. تحدد الإرادة الإلهية وتملى ما هو خير أو شر وما هو عدل أو ظلم[3]. بذلك فإذا أدخل الله الأتقياء إلى النار وغير الأتقياء إلى الجنة، فإن هذه الأفعال من أفعال الخير من حيث التعريف، على الرغم من كونها قابلة للاعتراض الأخلاقى والعقلى من وجهة النظر الإنسانية. وعلى الرغم من أن هذا المفهوم يوفر دفاعًا عن عقيدة الجبرية، إلا أنه يجعل إلى حد ما من عظات القرآن الباعثة على فعل الخير غير ذات معنى.

المحاولة الأخرى الأكثر مهارة للتوفيق بين الجبرية وبين حرية الإرادة، جاءت من جانب «أبو الحسن الأشعرى» (٨٧٤ - ٩٣٥) الفقيه الشهير. لم تأت نظريته عن «الكسب»، والتى أصبحت موقفًا لا يطاوله الخطأ، بالكثير من أجل توفير الحل لهذه المعضلة، حيث كانت شديدة الإبهام. يتحدث مفهوم النظرية عن أن الله هو الخالق الأوحد لكل أفعال البشر، لكن الناس «يكتسبون» أفعالهم، وبالتالى فهم مسئولون عنها بالعدل والقسطاس. قد تقدم الصيغ العويصة على الفهم، القليل

(١) ينبغى التنويه إلى أن القرآن يشير إلى مفهوم الجبرية بمداورة، لكنه قدمه بوصفه حدسًا سفيهًا من جانب خصوم النبى ﷺ.

﴿ سَيَقُولُ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا أَشْرَكْنَا وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن شَيْءٍ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ حَتَّىٰ ذَاقُوا بَأْسَنَا قُلْ هَلْ عِندَكُم مِّنْ عِلْمٍ فَتُخْرِجُوهُ لَنَا إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَإِنْ أَنتُمْ إِلَّا تَخْرُصُونَ ﴾ [الأنعام: ١٤٨].

﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا لَوْ شَاءَ اللَّهُ مَا عَبَدْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ نَّحْنُ وَلَا آبَاؤُنَا وَلَا حَرَّمْنَا مِن دُونِهِ مِن شَيْءٍ ﴾ [النحل: ٣٥].

﴿ وَقَالُوا لَوْ شَاءَ الرَّحْمَٰنُ مَا عَبَدْنَاهُم مَّا لَهُم بِذَٰلِكَ مِنْ عِلْمٍ إِنْ هُمْ إِلَّا يَخْرُصُونَ ﴾ [الزخرف: ٢٠].

(٢) يبدو أن مفهوم الجبرية يهز الاقتناع بالصفات الإلهية المتعلقة بالرحمة والشفقة والعدل.

(٣) «اجناز جولد تسيهر» «مقدمة فى علم الإلهيات الإسلامى والشريعة الإسلامية» ترجمة «اندراس روث هامورى» برينستون ١٩٨١م، ص٨٥ - ٩١.

اللازم لتوضيح المسائل التى تثير الارتباك والحيرة، لكن هذه الصيغ لها ميزة كونها مفتوحة على مختلف التفسيرات وقابلة لها. وعلى سبيل المثال، إذا فرق المرء بين الفكرة والفعل، فسوف تعنى هذه النظرية أن الله يسمح لنا بانفاذ اختياراتنا، ولكن إذا اعتبرنا أن الأفكار هى أفعال، يصبح الأمر هو نسخة من الجبرية شديدة الوطأة، جاعلة من الصعوبة علينا بمكان أن نرى بأية وجهة نظر أننا نكتسب أفعالنا ولماذا يتوجب وينبغى علينا أن نصبح مسئولين عنها.

هناك صفة إلهية أخرى تبدو متناقضة مع مفهوم الجبرية، ألا وهى صفة التعالى الإلهى. يعلمنا القرآن بأن عالم المكان - الزمان المخلوق والذى يضم وجودنا الحالى لا يمثل حقيقة سرمدية موضوعية. إنه من أجل توفير بيئة مؤقتة لمرحلة من مراحل ترقينا. المكان والزمان يمثلان توهمًا وليس الله مقيدًا أو محددًا بأىّ منهما. تتعالى ذات الله وتتجاوز قيود الزمان - المكان اللذين خلقهما. لهذا السبب فمن غير الصائب أن نفترض أن الله موجود داخل شىء من المكان المحدود أو فى إطار بعض فترات الزمان، مثلما لا ينبغى لله -جل وعلا، وله المثل الأعلى - أن تحتويه الجدران الأربعة لغرفة مكتبى، فلا ينبغى الادعاء بأنه موجود حاليًا فى ٢٠ مارس عام ٢٠٠٤م ويتطلع بناظريه مرتقبًا شهر مارس عام ٢٠٠٥م، حيث يفترض التأكيد الآخر أن الله يحل داخل الزمان بنفس الأسلوب الذى يفهم به البشر أنهم داخله. بالمثل فمن غير الصحيح التحدث عن أن الله له ماض أو مستقبل. معنى «الجبرية» هو التقرير أو التحديد المسبق، ويقتضى أن الله بدأ من نقطة محدودة فى الزمن فى تحديد حوادث المستقبل. ومن أجل حدوث هذا الموقف يتوجب افتراض أن الله تواجد فى لحظة ما داخل الزمن وأملى ما هو آت. هذا الموضع لله داخل الزمن هو التناقض الجوهرى الذى تقدمه مجمل مفاهيم الجبرية.

يقتضى التعالى والتجاوز الإلهى أفضلية متفردة. لا يحد علم الله وخبرته حدودًا مكانية أو دنيوية. علم الله المطلق الشامل يمثل وحدة واحدة، ويستغرق ويشمل جميع الأشياء كلها، بغض النظر عن موقعها فى المكان وفى الزمان. يؤكد القرآن على: ﴿لا تُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ﴾ [الأنعام: ١٠٤].

﴿ وَسِعَ رَبُّنَا كُلَّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الأعراف: ٨٩].

﴿ هُوَ الأَوَّلُ وَالآخِرُ وَالظَّاهِرُ وَالْبَاطِنُ وَهُوَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴾ [الحديد: ٣].

بسبب أننا نوجد داخل حدود وقيود الخلق، فمن المستحيل علينا أن نعى بشكل كامل معنى التعالى والتجاوز الإلهى[١]. مع ذلك فربما يكون استيعاب التعالى عن المكان أكثر سهولة من التعالى على الزمان. فى مقدورنا أن نتخيل أن التعالى على المكان يماثل الارتفاع إلى أعلى فوق الأرض، حيث يمكن لنا ملاحظة الأحداث التباعدية وهى تحدث فى آن واحد. لكن لسوء الحظ، فإن التعالى على الزمان أصعب بكثير للغاية على التصور، حيث إننا ندرك أنفسنا على ثبات مع الزمن، لكن النموذج المكانى قد يظل نافعًا. سوف ننحى جانبًا قضية الصبغة الوهمية للزمن؛ ليكون فى مقدورنا إدراك الزمان بوصف البعد المكانى الرابع. بعدها يصبح فى مقدورنا تصور أن التعالى قد يشابه الوجود شديد الابتعاد عن الخلق، حيث يصبح من الممكن ملاحظة ومراقبة الأحداث المتباعدة للغاية على مستوى المكان ومستوى الزمان.

قد يمكن المجادلة بأن القرآن ذاته يتضمن تعبيرات تضع لله موقعًا داخل المكان والزمان.

يتحدث القرآن عن «عرش الله»، وعن «يد الله»، وعن «وجه الله». ويتحدث القرآن عن أشياء نزلها الله على البشر، وعن أشياء تصعد إلى الله. كما يستخدم القرآن صيغًا فعلية مختلفة (مضارع، وماض، ومستقبل...) عندما يشير إلى أفعال الله. مع ذلك، فلا يمكن تجنب استخدام مثل هذه الصيغ الفعلية عندما تتصل وتتواصل مع بشر، نتيجة لقيود لغات البشر وخبراتهم. وعلى سبيل المثال، فإن من المستحيل فى اللغة العربية أن تشير إلى فعل من أفعال الله بدون استخدام صيغة فعلية ما[٢]. وعلى الرغم من إصرار جل علماء و شيوخ الإسلام على القول بأن تعالى

---

(١) لذلك ينص القرآن على: ﴿ يَعْلَمُ مَا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَلا يُحِيطُونَ بِهِ عِلْمًا ﴾ [طه: ١١٠].

(٢) فى حدود علمى، تملك اللغة العربية على عكس اللغات جميعها ما قد يمكن وصفه بالصيغة الفعلية المتجاوزة، لكن القرآن يبدو من ناحية أنه التف حول ذلك عن طريق استخدام الصيغ الفعلية =

الله يقتضى ضرورة عدم الأخذ بالإشارات المكانية إلى الله فى القرآن بشكل حرفى، لكنهم لم يصلوا إلى نفس الخلاصة بخصوص التعبيرات الزمانية، على الأصح بسبب أن الزمن يبدو مطلقًا بالنسبة إلينا بشكل أكبر من المكان. قد يكون ذلك صحيحًا أو غير صحيح، إلا أن الأمر يبدو أنه يتوجب على المرء ألا يصر على أن جميع الإشارات الزمنية إلى أفعال الله فى القرآن يجب أن تؤخذ حرفيًا، ولا أن يفهم منها أنها تتضمن أن الله تجرى عليه قيود الزمان.

تعرض معنى كلمة القدر إلى تطور حادّ لكنه خطير داخل الفكر الإسلامى. معنى القدر فى القرآن هو النظام والتشكيل الذى يفرضه الله على الخلق بما فيهم البشر. العلم والقدرة والإرادة البشرية كلها مقيدة بالقيود التى فرضها التقدير الإلهى على الإنسان، لكن الناس قد منحوا السلطة من لدن الله على صناعة الاختيارات وإنفاذها داخل نطاق هذه القيود. وبعد انقضاء زمن النبى ﷺ ببعض الوقت أصبحت كلمة «قدر» مرتبطة بالجبرية. أنا أعتقد أن ذلك كان خطأ علميًا عقائديًا بالغًا. إن الجدل بأن هيمنة الله المطلقة تقتضى الجبرية هو أمر لا يمكن الدفاع عنه. مع ذلك هناك أسباب قاهرة تدفع إلى الشك فى هذه العقيدة، حيث إن مفهوم الجبرية يتناقض مع تأكيدات القرآن المتعلقة بعدل ورحمة ورأفة، وتعالى الله -جل وعلا. إن التناقضات العقلية تنشأ لا محالة عندما نحاول أن نحدد بدقة العلاقة بين الله وبين الزمن، وتلك تجربة لا طائل ورائها.

***

السؤال الثامن: (جاءنى هذا السؤال من طالب ثانوى من الجيل الثانى، أو هو طالب جامعى - ليس فى مقدورى التذكر).

«لا أعتقد أن الله عادل، بسبب أننا جميعًا لا نحوز فرصًا متساوية لدخول الجنة. لى ابنة عم وهى مسلمة، توفى أبواها عندما كانت رضيعة، وتولى عمها تربيتها فى منزله. بدأ عمها فى التحرش بها جنسيًا منذ كانت طفلة صغيرة، واستمر فى

= المختلفة عندما يناقش أحداثًا من خارج هذا الكون المكانى - الزمانى. وعلى سبيل المثال، يتحدث القرآن حول أحداث فى الآخرة بصيغة الماضى أحيانًا وبصيغة المستقبل أحيانًا، وبالمضارع أحيانًا أخرى. وينطبق الأمر نفسه على حوادث أخرى حدثت فى الغيب.

استغلالها جنسيًا واغتصابها حتى غادرت منزله وهى قرب العشرين من عمرها. أصبحت هذه الفتاة اليوم مومسًا، وتذهب إلى الفراش مع أى شخص تصادفه فى طريقها. كيف يمكن أن تصبح مثل هذه الفتاة مسئولة عن أعمالها، وهى التى نشأت فى مثل هذه الظروف الفاسدة، والتى عانت من الاستغلال الجنسى منذ نعومة أظفارها، مثلها مثلى أنا الذى نشأت فى بيئة عائلية متماسكة؟ لا يبدو الأمر سليمًا فحسب».

***

مثلما أشرت من قبل فإن ترقينا فى الخير فى هذه الحياة مربوط بشكل جوهرى وعضوى بحالنا فى الحياة التالية. يثير السؤال بعدها نقطة غاية فى الشرعية والصحة وهى أن البعض منا قد أتى من خلفيات وبيئات ذات مميزات وامتيازات أكثر من البعض الآخر. يولد البعض منا فى محيط أسرى مثالى بالفعل، حيث كان محاطًا بالسلام والحب والسعادة. وتعلم البعض الأخلاقيات والروحانيات منذ كان صغيراً. يوهب البعض منا بالمزاج والطبع المسالم، وبالذكاء الحاد، وبالطلعة الجميلة، ويستطيع بناء صورة ذاتية إيجابية. أما البعض الآخر مثل هذه السيدة الشابة المذكورة فى السؤال فقد ولدت فى إطار كوابيس حية. يبدو من الصعوبة بمكان بغض النظر عن الخلفيات التى أتينا منها، أن يوزن ترقينا فى الخير بنفس الميزان.

كنت فى نزهة خلوية مع أسرتى ذات ليلة. كانت ابنتى الصغيرة تتبعنا وهى على دراجتها، وعلى حين فجأة صاحت معلنة عن رأى لها بصوت مرتفع. لقد صاحت بينما كانت واقفة على دواسات الدراجة، وبينما شعرها البنى المتموج الطويل يرفرف إلى الوراء، قائلة بمرح أنا «فاتن لانج»، وأنا أحب نفسى (وما أنا عليه)» انفجرت أنا وزوجتى ضاحكين، بعدها التفت إلى راجية قائلاً: لا بد أننا نقوم بمهمة جيدة.

من المثير للدهشة كيف تنشأ الصورة الذاتية فى هذا الوقت المبكر. وعلى الدوام فإن بناتى يسررن لى ملاحظاتهن عن كم هن فاتنات. ويسألننى بكل ثقة: ألست أنا

بجميلة يا أبى؟ وكثيراً ما تقول زوجتى الشىء ذاته عن نفسها، بينما تعترف فى الوقت نفسه برغبتها فى فقدان عشرين رطلاً من وزنها: أنا أعرف أن وزنى زائد وتستأنف لكننى أعرف أيضًا أننى جميلة.

نساء حياتى هؤلاء جميلات بالفعل يعتمل ذلك بداخلهن من البدايات. لكنهن عندما يصرحن بمثل هذه الأقوال فهن يتحدثن عن ما يتجاوز مجرد الصورة الخارجية.

إنه الأسلوب الذى يرين به أنفسهن داخل عقولهن ومن خلال قلوبهن. طالما أخبرنى الناس أنا أيضًا بأننى جميل الطلعة، لكننى لم أصدق ذلك على الإطلاق. دائمًا ما شعرت بأننى أتعرض للخداع، وأن الآخرين يسخرون منى بسبب أن طبيعة حياتى جعلت فى غير مقدورى رؤية ذلك. عندما أتطلع إلى داخل نفسى فلا أرى جمالاً أو أناقة، إنما أرى شخصًا مذعوراً أو مشوهًا. وأنا أعلم أن ذلك سوف يستمر معى إلى نهاية عمرى، لكننى أعلم أيضًا أن الصورة تتلاشى بالتدريج.

كانت المدينة التى نشأت وترعرعت فيها معروفة داخل ولايتنا باسم «بؤرة عنف كونيكتكت» كانت مكانًا فاسدًا مليئًا بالعنف. فى فترة مراهقتى كان العنف العنصرى متفشيًا، وكذلك الشغب وحروب العصابات والجريمة. ظهرت قوة البوليس الخاصة بمدينتنا على شاشات التليفزيون فى برنامج «٦٠ دقيقة» بوصفها واحدة من أشد إدارات الشرطة فسادًا فى الوطن. وانتهى المصير ببعض من أصدقائى فى السجن. أدين البعض منهم بارتكاب جرائم عنف كبيرة. أصبح البعض منهم لصوصًا، والبعض الآخر من مروجى المخدرات. وكان - تقريبًا - كل شخص هناك من مدمنى تعاطى المخدرات.

كانت حياتنا الأسرية على مستوى أسوأ من الفوضى التى فى الشوارع. التواجد بالمنزل كان يشبه الحبس كما لو كنت قد دفنت حيًا. كان أبى مدمن كحول من النوع العدوانى العنيف، كما كان مدمنًا أيضًا لإيذاء زوجته. وسار إخوتى على خطاه مشيًا على درب إدمان المخدرات اللعين. أدمن أخى الأكبر الخمر حين كان فى أوائل العشرينيات من عمره، كذلك فعل أخى الذى يليه. أخى الثالث والذى يكبرنى

بنحو العام أصبح مدمنًا للهيروين وهو فى المدرسة الثانوية، بعد وقت قليل من تركى للمنزل للذهاب للمدرسة الثانوية. أنا لست متأكدًا من أن الإدمان هو من الأمراض المعدية، لكننى على تمام اليقين أن اليأس هو الذى يولد الإدمان.

على الرغم من ذلك، فإن رد الفعل الأول الذى ينتابنى على الدوام هو الدهشة عندما يهلل أصحابى ومعارفى عن الكيفية التى حصلت بها على «الخلاص» رغم ظروف طفولتى وصولاً إلى حياتى الهانئة والمستقيمة التى يرونها. هل لمجرد أننى تعرضت للرذيلة بقدر يزيد قليلاً عما تعرضوا هم له، إن ذلك يعنى أنه يتوجب علىّ أن أكون مجردًا من الأخلاقيات أو من إلهامات الحكمة. ربما أنهم يضخمون من تأثيرات الظروف المحيطة على تطور الشخصية؛ لأن الحقيقة هى أن غالبية هؤلاء الذين تربيت ونشأت معهم يحيون حيوات خيرة ومسالمة هذه الأيام. ربما أننى لم أكن قديسًا، كما أننى لست كذلك حاليًا، لكننى أملك إحساسًا قويًا بمعنى الصواب والخطأ، والخير والشر، على الرغم من أننى قد قاومت ذلك بعض الأحيان، متيحًا الفرصة لتبلد هذا الإحساس. لست مقتنعًا بالنظرية القائلة بأن ما يصنعنا ويحددنا هو شفرتنا الچينية وظروفنا المحيطة بنا. أنا مؤمن بأن البشر يملكون وعيًا وخبرة أخلاقية وروحية يزداد مقدارها وينقص تبعًا لاختياراتهم التى يختارونها. لست أقول بأن الظروف المحيطة أو الچينات ليست بذات تأثير على تطورنا وترقينا- فهذا جدل لا يمكن الفوز فيه- لكننى أشعر أن إرادة الاختيار تلعب دورًا محوريًا بالنسبة للمعظم منا.

ما أقوله هو أنه لا يمكن إنكار أن الحياة ليست ملعبًا ممهدًا ومستويًا، وأن بعضنا يولد داخل ظروف تفضى إلى الفضيلة بشكل أكثر تيسيرًا، وربما كان ذلك وراء أن القرآن يشير إلى أن ثواب أعمال الخير يتفاوت، فى حين أن عاقبة فعل الشر متجانسة إلى حد كبير:

﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾
[النساء: ٤٠]

﴿ مَن جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَن جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلا يُجْزَىٰ إِلاَّ مِثْلَهَا وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [الأنعام: ١٦٠].

﴿وَمَن يَقْتَرِفْ حَسَنَةً نَّزِدْ لَهُ فِيهَا حُسْنًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ شَكُورٌ ﴾ [الشورى: ٢٣][١].

وعلى الرغم من أن فعل الشر يتولد عنه تأثير مهلك معادل له، فإن ثواب فعل الخير يختلف بشكل محسوس. قد يعود الأمر فى ذلك إلى أن الخير الذى فى فعل ما، وكذلك الثواب يتزايدان وفقًا لشدة المقاومة التى يلاقيها هذا الفعل. لذلك فإن الاهتمام إلى النبى ﷺ فى بدايات بعثته النبوية، عندما كان عدد أتباعه قليلاً للغاية وكانت المعارضة ضده غاية فى القسوة، له ثواب أعظم بكثير من الانضمام إليه عندما كان النصر حليفه[٢].

إن فعلاً صغيرًا من أفعال الكرم يأتى من امرئ لديه الكثير من متاع الدنيا قد يحسب له بوصفه من أفعال الكرم الصغيرة، لكن لو أتى نفس الفعل من امرئ قد واجه معوقات كبيرة فقد يعتبر إنجازًا أخلاقيًا وروحيًا هائلاً. يؤكد القرآن تمشيًا مع ذلك الخط بأننا نواجه فى حياتنا اختبارات تتواءم مع ما وهب لنا من عطاء- الذى يتضمن العلم والشخصية والظروف المحيطة، والمركز الاجتماعى- كما لا يكلف الله نفسًا إلا ما تطيق.

﴿ وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [المائدة: ١٦٥].

﴿ لا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ ﴾ [البقرة: ٢٨٦].

﴿ وَلا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلاَّ وُسْعَهَا وَلَدَيْنَا كِتَابٌ يَنطِقُ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ ﴾ [المؤمنون: ٦٢]

---

(١) انظر أيضًا: [يونس: ٢٧]، [القصص: ٨٤]، [الفتح: ٤٠].

(٢) ﴿ لا يَسْتَوِي مِنكُم مَّنْ أَنفَقَ مِن قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُوْلَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِّنَ الَّذِينَ أَنفَقُوا مِن بَعْدُ وَقَاتَلُوا وَكُلاًّ وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴾ [الحديد: ١٠]

عندما تهرع إلى نجدة غريب فى مأزق، فذلك عمل يستحق التقدير عندما تفعله فى ضواحى المدينة الآمنة، لكنه قد يكون أكثر نبلاً عندما تفعله فى قلب المدينة، حيث البقاء والنجاة الذاتيين هما القاعدة، وحيث المعيار المتبع هو تجاهل البؤس الإنسانى. بالمثل، أن التبرع بمبلغ بسيط من جانب شخص فقير هو أثقل فى الميزان من نفس مبلغ التبرع من جانب شخص موسر. يجد هذا المفهوم المتعلق بنسبية خير العمل الصالح صداه فى روايات الحديث النبوى التى تؤكد على رحمة الله التى بلا حد. استحقت امرأة كانت تعطى اللبن إلى المحتاجين ولم تكن توذى أحدًا بالقيل والقال دخول الجنة على الرغم من أنه كان من المعروف عنها أنها لا تؤدى صلواتها ولا صيامها[1]. دخل رجل الجنة لنزوله إلى البئر ليحضر الماء؛ ليسقى كلبًا يكاد يموت عطشًا[2] ارتحل رجل قد قتل مائة نفس إلى مدينة بعيدة للعثور على رجل فاضل يقدم له العون على التماس طريق التوبة، وفى منتصف الطريق إلى هذه المدينة توفى الرجل القاتل، لكن الله أدخله الجنة بسبب طلبه للتوبة بإخلاص[3]. جريًا على هذه الأمثلة ينتظر الله الكثير من هؤلاء الذين يحوزون الكثير. لذلك فإذا لم يبلغ النبى الوحى الذى أنزل عليه بأمانة، فسوف يتلقى عذابًا مضاعفًا[4]، مثلما هو حال زوجاته إذا اقترفن الإثم ﴿ يَا نِسَاءَ النَّبِيِّ مَن يَأْتِ مِنكُنَّ بِفَاحِشَةٍ مُّبَيِّنَةٍ يُضَاعَفْ لَهَا الْعَذَابُ ضِعْفَيْنِ وَكَانَ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا ﴾[الأحزاب: ٣٠].

لذلك فيبدو أن جزاءنا الأخروى لا يعتمد فقط على مستوى الخير الذى نصل إليه مع نهاية حياتنا، لكنه يعتمد أيضًا على مقدار التقدم الذى أحرزناه للوصول إلى هناك. إنها هى المسافة الأخلاقية والروحية التى قطعناها خلال حياتنا هذه- أى التقدم الذى أحرزناه منسوبًا إلى ما قد منح الله لنا- هى التى تحدد حالنا فى ما يأتى. لذلك، ربما لا أوافق على تقييم تصرفات الآخرين بناء على أساس من الدين، فأنا أرفض على الأساس نفسه تقدير حالهم مع الله. وحتى لو بدا أحد الناس أكثر

---

(١) المشكاة: رقم (٤٩٩٢) برواية أبى هريرة من مسند أحمد والبيهقى.

(٢) البخارى: رقم (١٧٣) برواية أبى هريرة.

(٣) البخارى: رقم (٣٤٧)، ومسلم (٤٦ - ٤٧/ ٢٧٦٦). برواية أبى سعيد الخدرى.

(٤) ﴿ولو تقول علينا بعض الأوقاول لأخذنا منه باليمين﴾.

استقامة من شخص آخر، فقد تكون أفعال الشخص الثانى أثقل فى ميزان الله عن تلك التى للأول؛ لأن رحمة الله ورأفته وغفرانه تسرى خلال مجمل منظومة الخلق.

يتوجب الاعتراف بأنه على الرغم من أن فكرة نسبية الخير هذه تلقى تأييداً داخل القرآن وفى الحديث النبوى، لكنها لا تمثل موضوعًا رئيسيًا فى أيهما، وبخاصة فى القرآن. لو جعل هذا الموضوع غاية فى الوضوح، فقد يركن غالبية المؤمنين- على وجه التقريب - إلى ذلك سامحين لأنفسهم بالكثير البالغ من الفساد. ثم ينسبون هذا الفساد إلى صعوبات متخيلة تخطت إمكاناتهم على السيطرة عليها. من الخصائص المميزة للقرآن هى أنه لا يؤسس بناء على حالات المتشابهات، لكنه بدلاً من ذلك يجلى بوضوح من السلوك المحفوف بالمخاطر عن طريق الحض تجاه ما هو أكثر خيراً والزجر عما هو ضار.

***

السؤال التاسع: (جاء هذا السؤال من طالبة جامعية غير مسلمة. تبادلنا نقاشات كثيرة للغاية من خلال البريد الإلكترونى. تلقيت أيضًا أسئلة من عدد من المسلمين الأمريكيين الشبان حول الدافع وراء الخلق).

«إذا لم يكن لله حاجات، فلماذا خلقنا إذن؟ أنا لا أسأل عن الهدف من خلق الحياة للإنسان، أنا أسأل عن هدف الله من خلق الإنسان. إذا لم يكن لله حاجة، فلماذا إذن خلق أى شىء، والبشر على وجه الخصوص؟ أعذرنى لقولى هذا، ما الذى يخص الله فى هذا الأمر؟»

***

هذا السؤال محفوف بالصعوبات. من الأسهل التحدث عن المعنى الذى تحمله الحياة للبشر، وعن التحدث عما يعنيه خلقنا عند الله. عندما نناقش الأمر الأول فنحن نقف على أرضية أكثر صلابة. نحن نتحدث فى هذه الحالة بدقة أكبر من واقع الخبرة والعقل، لكننا حين نناقش المنظور الإلهى فنحن نتحرك تحت قيود ثقيلة. خبراتنا التى تتأسس عليها لغاتنا قاصرة بلا حدود عن المقدس. أية صياغات

تستعمل من أجل شرح ذات الله أو علمه أو فعله أو مظاهر حكمته لن تكون إلا تقريبية. وحتى المذهب الحنبلى المحافظ قد اعترف بوجود معضلة فيما يتعلق بهذه الصياغات القرآنية أطلق عليها مبدأ «بلا كيف». ينص المذهب على أن أوصاف الله وأفعاله التى فى القرآن تعبر عن حقائق، لكن ليس فى مقدورنا بدقة كيفية إدراك هذه الحقائق.

استخدم عديد من المفسرين «التأويل» عند تفسيرهم لهذه الآيات[1]. يتوجب علىّ أيضًا الاعتراف بأن السؤال قد أخذنى على حين غرة عندما طرح أمامى فى المرة الأولى؛ ذلك لأنه لم يأت مشابهًا لأنواع الاعتراضات التى أثرتها أنا عندما كنت ملحدًا. كانت تساؤلاتى آتية من مستوى القاعدة بمفهوم ما. كانت الحالة البشرية بالنسبة لى هى التى تجادل ضد وجود الله. يجادل السؤال السابق هابطًا من السماء إلى الأرض؛ ذلك لأنه يتساءل عن الدافع الإلهى: «ما الذى يخص الله فى هذا الأمر؟» أظن أن الأمر جاء غريبًا على تفكيرى؛ بسبب أن فى عقيدة الإيمان التى تربيت عليها أن استغناء الله وتعاليه بذاته كانا من الأمور التى نتعلمها بدون كثير من التشديد. كانت بنوة عيسى المقدسة لله تلقى حضوراً أكبر بكثير. وحيث إن عيسى فى المسيحية هو الله وهو إنسان؛ لذلك تتيح إنسانيته التى يقوم عليها دليلاً دامغًا فى الأناجيل للمرء أن يتقبل فكرة أن لله حاجات مثل التى لنا معشر البشر. أظن أن ذلك ربما يكون هوالسبب وراء أن استغناء الله المطلق لم يكن مشكلة عويصة بالنسبة لى.

من المفهوم أن يشكل استغناء الله المطلق ما هو أكثر من مشكلة بالنسبة للمسلمين الأمريكيين الشبان الذين كتبوا إلى عن ذلك، ففى قرآنهم تتكرر آيات السلطان المطلق لله والاستغناء المطلق له - جل وعلا.

﴿قَوْلٌ مَّعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِّن صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذًى وَاللَّهُ غَنِيٌّ حَلِيمٌ﴾ [البقرة: ٢٦٣].

﴿وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾ [آل عمران: ٩٧].

﴿فَإِنَّ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَكَانَ اللَّهُ غَنِيًّا حَمِيدًا﴾ [النساء: ١٣١].

---

(١) اجناز جولدتسيهر - «مقدمة فى علم الإلهيات الإسلامى والشريعة الإسلامية» ترجمة «أندراس وروث هامورى» پرينستون ١٩٨١، ص٩٢-١٠٩.

﴿ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا سُبْحَانَهُ هُوَ الْغَنِيُّ لَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ ﴾ [يونس: ٦٨]

﴿ وَمَن شَكَرَ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ رَبِّي غَنِيٌّ كَرِيمٌ ﴾ [النمل: ٤٠].

﴿ وَمَن جَاهَدَ فَإِنَّمَا يُجَاهِدُ لِنَفْسِهِ إِنَّ اللَّهَ لَغَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ ﴾ [العنكبوت: ٢٩].

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ أَنتُمُ الْفُقَرَاءُ إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ هُوَ الْغَنِيُّ الْحَمِيدُ ﴾ [فاطر: ١٥].

﴿ إِن تَكْفُرُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنكُمْ وَلا يَرْضَىٰ لِعِبَادِهِ الْكُفْرَ وَإِن تَشْكُرُوا يَرْضَهُ لَكُمْ ﴾ [الزمر: ٧][1]

تكرر ذكر مجموع الصفات الإلهية الخاصة بالرحمة والرأفة والكرم والود والحب فى القرآن بما يفوق كثيرًا ذكر استغناء الله المطلق، لكن ذلك يدل على أن هؤلاء يختلفون جوهريًا عن الصفات البشرية المقابلة. لا وجود فى القرآن لمجرد إشارة إلى ارتباط الحاجة أو الأمل أو عدم اليقين أو العجلة أو النقص أو الألم أو الرثاء بالصفات الإلهية، فى حين أن هذه الصفات تعتبر جوهرية للبشر من حيث ممارستها وترقيهم فيها. مع ذلك فإن سيطرة الله على خلقه هى سيطرة مطلقة، فلا شىء يحدث دون علمه وإذنه، ويخرج كل شىء من العدم ويظهر وفقًا لصنعه. وفى حين أن الله يعلم أن الكثير من الناس سوف ينال منهم إغراء رفض الإيمان، فإنه يعلم أيضًا أن أناسًا آخرين لن يفعلوا ذلك[2]. ومثلما تبرهن حقيقة الوحى فليس الله غير عابئ بمصير عباده، لكنه لا يحتاج أيضًا إلى إيمانهم. إن إسباغ وإنعام الله بصفاته على خلقه - والبشر من ضمنهم - لا تحمل صفة الذاتية على الإطلاق، بمعنى أنها لاترتبط بحاجة شخصية؛ لذلك تستحق الآية الأخيرة المذكورة سابقًا [الزمر: ٧] الكثير من الانتباه؛ لأنها تستحق التأكيد على ضرورة التمييز بين الاحتياج وبين حصول الرضا عن فعل شىء. وهو فى هذه الحالة شكر الخلق لنعمة الله. هناك الكثير البالغ من الإشارات القرآنية تجاه حصول الرضا من جانب الله على

(١) أيضًا: [البقرة: ٢٦٧]، [الأنعام: ١٣٣]، [إبراهيم: ٨] [الحج: ٦٤]، [النمل: ٤٠] [لقمان: ١٢-٢٦]، [محمد: ٣٨]، [الحديد: ٢٤]، [الممتحنة: ٦]، [التغابن: ٦].

(٢) [المائدة: ٥٧]، [الحجر: ٣٩-٤٣]، [الإسراء: ٦٥].

المؤمنين[1]، وهناك عدة من بين هذه الإشارات تبين أن معايشة هذا الرضا الإلهى سيكون من أعظم الثواب الذى ينتظر المؤمنين فى الآخرة.

﴿ وَمَا لَكُمْ أَلاَّ تَأْكُلُوا مِمَّا ذُكِرَ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ [الأنعام: ١١٩]

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ﴾ [التوبة: ١٠٠]

﴿ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ رَبَّهُ ﴾ [البينة: ٨]

وربما يمكن الجدل بأنه على الرغم من تأكيد القرآن بأن ليس لله حاجات، فإنه يكرر ذكر بأن الله «يشاء» و«يريد». هناك ما يربو على مائة من مثل هذه النصوص داخل القرآن. مع ذلك، فلا تعبر هذه النصوص عن الحاجة أو النقص أو التطلع، أو ما إلى ذلك على الإطلاق، لكنها تنقل إلينا معنى «ينوى» أو «يقرر» أو «يضع خطته أو هدفه موضع التنفيذ». والآيات التالية هى أمثلة دالة على ذلك:

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَفْعَلُ مَا يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٢٥٣]، [النساء: ٤]، [هود: ١٠٧]، [إبراهيم: ٢٧]، [الحج: ٤-١٨]، [البروج: ١٦].

﴿ يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ [البقرة: ١٨٥].

﴿ كَذَلِكَ اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ ﴾ [البقرة: ٤٧]، [المائدة: ١٧]، [النور: ٤٥]، [القصص: ٦٨]، [الروم: ٥٤]، [فاطر: ١]، [الشورى: ٤٩]، [الانفطار: ٨٢].

﴿ وَلا يَحْزُنكَ الَّذِينَ يُسَارِعُونَ فِي الْكُفْرِ إِنَّهُمْ لَن يَضُرُّوا اللَّهَ شَيْئًا يُرِيدُ اللَّهُ أَلاَّ يَجْعَلَ لَهُمْ حَظًّا فِي الآخِرَةِ وَلَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾ [آل عمران: ١٧٦].

---

(١) [البقرة: ٢٠٧- ٢٥٦]، [آل عمران: ١٥ - ١٦٢-١٧٤]، [النساء: ١١٤]، [المائدة: ٢-١٦]، [التوبة: ٢١- ٧٢ -١٠٠ - ١٠٩]، [الأنبياء: ٢٨]، [محمد: ٢٨]، [الفتح: ١٨-٢٩]، [الحديد: ٢٠-٢٧]، [التوبة: ٨]، [الممتحنة: ١]، [الجن: ٢٧].

﴿ مَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِّنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴾ [المائدة: ٧].

﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَن نَّقُولَ لَهُ كُن فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠].

﴿ وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا ﴾ [الإسراء: ١٦].

هناك نص آخر فى القرآن يمكن تأويله بوصفه يتضمن «حاجة» إلهية وهى الآية التى يستشهد بها فى غالب الأحوال ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾، لكن السياق يوضح أن هذه العبادة هى حيوية بالنسبة إلى الجن والإنس لا إلى الله، وأن الحياة من أجل أى هدف آخر تقود إلى العذاب فى الحياة القادمة.

﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَىٰ تَنفَعُ الْمُؤْمِنِينَ (٥٥) وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ (٥٦) مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ (٥٧) إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ (٥٨) فَإِنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذَنُوبًا مِّثْلَ ذَنُوبِ أَصْحَابِهِمْ فَلا يَسْتَعْجِلُونِ (٥٩) فَوَيْلٌ لِّلَّذِينَ كَفَرُوا مِن يَوْمِهِمُ الَّذِي يُوعَدُونَ ﴾ [الذاريات: ٥٥-٦٠].

لا يلقى الحديث النبوى مزيدًا من الضوء على الدافع الإلهى الكامن وراء الخلق. القليل النادر منه هو الذى يتعرض بشكل مباشر لهذا الصدد، ومعظم تلك التى تتجاوز ما صرح به القرآن ليست من الأحاديث الصحاح، وفقًا لمعايير الحديث هناك عدد محدود للغاية من الأقوال التى تبين أن لله اهتمامًا قويًا بالبشرية [1] لكن هناك أيضًا أقوال أخرى تظهر أنه لا يعبأ بمصير خلقه ولا يكترث بهم[2]، لذلك فهم كأدلة يلغى بعضها البعض الآخر.

---

(١) أحد أكثر هذه الأحاديث إثارة هو الآتى. عن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - أنه قال: «قدم على رسول الله - ﷺ - بسبى، فإذا امرأة من السبى تبتغى، إذا وجدت صبيًا فى السبى، أخذته فألصقته ببطنها وأرضعته، فقال لنا رسول الله - ﷺ -: «أترون هذه المرأة طارحة ولدها فى النار؟» قلنا: لا. والله هى تقدر علي أن لا تطرحه. فقال رسول الله - ﷺ - «الله أرحم بعباده من هذه بولدها». [صحيح] البخارى (٥٩٩٩)، ومسلم (٢٢/ ٢٧٥٤).

(٢) عن أبى الدرداء عن النبى - ﷺ - قال: «خلق الله آدم حين خلقه، فضرب كتفه اليمنى فأخرج ذرية بيضاء كأنهم الذر، وضرب كتفه اليسرى فأخرج ذرية سوداء كأنهم الحمم، فقال للذى فى يمينه: إلى الجنة ولا أبالى، وقال للذى فى كفه اليسرى: إلى النار ولا أبالى» [صحيح] أحمد فى «مسنده» (٦/ ٤٤١: حديث ٢٧٣٦١).

لذلك سوف نعود مرة أخرى إلى السؤال المتعلق بالدافع الإلهى الكامن خلف الخلق بإجابة ناقصة. إن القاعدة التى يتأسس السؤال عليها بأنه لا حاجة لله تتفق تمام الاتفاق مع ما جاء بالقرآن. والإشارات الوحيدة التى نجدها بخصوص حافز إلهى يقنع خلف خلق البشر، هى النصوص العديدة التى تتحدث عن رضاء الله عن المؤمنين. بالطبع لا وجود لتناقض فى ذلك؛ لأننا نحن البشر عادة ما «نخلق» بدون الحاجة لذلك. قد لا يشبع هذا الأمر فضول البعض، لكن مثلما أشرنا سابقًا فإن الفهم التام ربما يكون فوق طاقاتنا. إذ كيف يتسنى لنا الفهم التام لحب لا تشوبه حاجة عاطفية، ورأفة لا يشوبها تعاطف، وعطاء بدون تضحية ذاتية، ومغفرة بدون حرج شخصى، وباختصار فضيلة بدون مكابدة؟ إنه هو ضعفنا الذى نحسه ذاتيًا، والذى يتوجب علينا أن نسمو فوقه، هو الذى يجعل نمونا وترقينا داخل تلك الصفات ممكنًا، كما أن وجودها مفهوم لدينا، لكن كيف يتسنى لنا استيعاب كمالهم المقدس والمطلق فى الله؟

أفضل الوسائل التى قد نملكها للحصول على بعض الفهم للصفات الإلهية من خارج دائرة الوحى ودائرة التجربة الروحية، هو من خلال انعكاسهم الضئيل والمحدود داخل نفوسنا. وهذا ما سأحاول فعله الآن. سوف أحاول استخدام خبراتنا الخاصة بالأسماء الإلهية من خلال النفخة الموجودة لهم داخل نفوسنا من أجل الحصول على لمحة خاطفة يعتريها النقصان عن الإرادة الإلهية المتعلقة بالخلق. وفى حين أننى سوف أجازف بما يلى من قول، فلست أدعى أن ذلك يمثل تفسيرًا، بل إنه لا يزيد عن كونه قياسًا.

بما أن الله هو الخالق، فالبشر أيضًا خالقون بفضيلة نفخته التى نفخها فيهم من روحه ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي فَقَعُوا لَهُ سَاجِدِينَ﴾ [الحجر: ٢٩] هذه القدرة الخلقية المفطورة هى إحدى المظاهر التى تميز الجنس البشرى عن بقية المخلوقات. غالبًا ما يخترع البشر بسبب الحاجة أو الضرورة، مثلما حين يبنى النجار المنازل من أجل الحصول على لقمة العيش، لكننا عادة ما نخلق أو نخترع بدون أن يكون ذلك استجابة إلى حاجة يمكن تمييزها، ولكن إلا استجابة لنداء داخلى ملح للغاية. وأنا لا أشعر أن جميع أو حتى معظم الخلق والاختراع يتأسس على حاجة. أعتقد أن

ذلك النداء هو جزء مكمل للطبيعة البشرية، وهو صفة إنسانية عميقة الجذور مثلها مثل الذكاء، أو الوجود.

عندما كنت طالبًا فى المدرسة الإعدادية، كانت الرياضيات (علم الحساب) تمثل لى متنفسًا خلاقًا رئيسيًا، كان دأبى هو استحداث مسائل وتقديم حلول حدسية ونظريات وبراهين، قبل أن أتعلم شيئًا عنهم فى المدرسة الثانوية فيما بعد. كنت أذاكر فى مراجع علم الحساب الخاصة بأخى الأكبر وأحل المسائل الواردة فيها. لم تكن أسرتى تفهم ما ترى من لهفتى على هذا الموضوع، وكنت أخفى ذلك عن العديد من أصدقائى. كنت أجتهد فى علم الحساب فى ذلك الزمن الماضى بدون أى هدف إلا السعادة الخالصة بالقيام بذلك.

وخلال رحلة الحياة تتشكل النزعة الخلاقة لدينا بأشكال وهيئات عديدة، وتنضج فى بعض الأحيان بالأسلوب الذى ننضج نحن به. لقد ظلت الرياضيات تمثل بالنسبة لى مجالاً خلاقًا رئيسيًا، لكن التدريس والكتابة قد أصبحا أيضًا متنافسين مهمين. بالطبع يرتبط كل ما سبق الآن بمسيرتى المهنية، لكننى أشعر أن حبى لهم يتجاوز الاهتمامات العملية.

عندما بلغت الثلاثين من العمر، بدأت أشعر برغبة ملحة فى المشاركة فى خلق شىء يربط كل كيانى به. وربما كانت تلك الرغبة تنمو بداخلى منذ بعض الوقت. أردت المشاركة بدور فى الإتيان بأحد إلى هذا الوجود، أحد تنعكس صورتى فيه، واختبر معه كل ما يمكننى أن أعطى من عطاء- أحد يصبح جزءًا منى وأصبح أنا جزءًا منه. وكانت «راجية» زوجتى قد شعرت بالرغبة نفسها. وهكذا وبنعمة من الله وفضل ولدت ابنتنا الأولى، وأحببتها من كل قلبى منذ اللحظة التى وقعت عيناى عليها، وجدت الشىء نفسه مع أختيها اللتين أعقبتاها. من خلال حبى وأبوتى لبناتى الثلاث: «جميلة» و«سارة» و«فاتن»، فقد انخرطت فى أعظم مشروع للخلق لا يماثله شىء عرفته من قبل. وعلى الرغم من أننى ألعب دورًا محوريًا فى نموهم وترقيهم- مثلما يفعلون هم بدورهم لى بدون قصد- وعلى النقيض من اختراعاتى الأخرى، فلست أنا الذى يقرر ما سيصبحون عليه، مما

يجعل من الأمر الأكثر جمالاً بالنسبة لى. مع ذلك، وبدون مواربة، فأنا لست فى حاجة لأن يكون لى أبناء- لا يعتمد وجودى على أن يكون لى أبناء- لكن بوجودهم كنت أستجيب لإرادة داخلية غير قابلة للكبت.

***

السؤال العاشر: (جزء من الأسئلة التى ترد إلىّ تعبر عن سلبيات حول الإسلام تأتى من مهاجرين مسلمين، مثل هذا السؤال الوارد من مهندس يعيش فى الولايات المتحدة من سنوات عديدة. هناك تصاعد وزيادة حادة، منذ ٩/١١، فى الهجوم على الشخصية الأخلاقية للنبى، وعادة ما يتضمن ذلك إحياء لانتقادات استشراقية قديمة إلى حدّ ما. ربما يفسر ذلك السبب وراء أننى أتلقى حديثًا الكثير من الأسئلة حول زوجات النبى).

«لقد ولدت فى سوريا وهاجرت إلى الولايات المتحدة عندما كنت فى الثانية والعشرين من عمرى. كنت فى شبابى مسلمًا متعصبًا، لكننى الآن، وأنا فى الثامنة والخمسين من عمرى، أصبحت لا أدريًا إلى حد كبير. هناك آيات فى القرآن تجعل من المستحيل على أن أؤمن بأنها من الوحى الإلهى. المثال البارز عليها هو بداية سورة التحريم التى تسرد جدالاً مثيرًا للشفقة بين النبى وزوجاته ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (١) قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ (٢) وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ (٣) إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ (٤) عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا (٥) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَّا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ (٦) يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ [التحريم: ١-٧] والآية [٣٧] من سورة الأحزاب

التى تبيح للنبى الزواج من زوجة ابنه بالتبنى ﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴾ . أرجو المعذرة على قولى هذا، لكن لماذا يتوجب على الله مناقشة هذه الصغائر فى كتاب وحيه الأخير، ثم أليس يبدو الأمر غير ملائم إلى حد بعيد بأن يسارع الله فى تقديم العون إلى «محمد» فى هذه المعارك الزوجية البسيطة؟».

***

هاتان المجموعتان من الآيات هما ضمن الأهداف المتعرضة للانتقاد فى القرآن فى معظم الأحيان من جانب المستشرقين، وحيث تكون ردود الأفعال المشابهة للسؤال أعلاه هى ردود أفعال مشتركة وعامة. وقد رد العديد من شيوخ المسلمين المعاصرين على هذا الانتقاد. وعلاوة على إعادة عرض هذا الرد باختصار، سوف أشارك ببعض الانطباعات الشخصية. يتحدث الجزء الأول من السؤال عن السبع آيات الأولى من سورة التحريم:

١- ﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ لِمَ تُحَرِّمُ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكَ تَبْتَغِي مَرْضَاتَ أَزْوَاجِكَ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾.

٢- ﴿ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ لَكُمْ تَحِلَّةَ أَيْمَانِكُمْ وَاللَّهُ مَوْلَاكُمْ وَهُوَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ ﴾.

٣- ﴿ وَإِذْ أَسَرَّ النَّبِيُّ إِلَىٰ بَعْضِ أَزْوَاجِهِ حَدِيثًا فَلَمَّا نَبَّأَتْ بِهِ وَأَظْهَرَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ عَرَّفَ بَعْضَهُ وَأَعْرَضَ عَن بَعْضٍ فَلَمَّا نَبَّأَهَا بِهِ قَالَتْ مَنْ أَنبَأَكَ هَٰذَا قَالَ نَبَّأَنِيَ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ ﴾.

٤- ﴿ إِن تَتُوبَا إِلَى اللَّهِ فَقَدْ صَغَتْ قُلُوبُكُمَا وَإِن تَظَاهَرَا عَلَيْهِ فَإِنَّ اللَّهَ هُوَ مَوْلَاهُ وَجِبْرِيلُ وَصَالِحُ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمَلَائِكَةُ بَعْدَ ذَٰلِكَ ظَهِيرٌ ﴾.

٥- ﴿ عَسَىٰ رَبُّهُ إِن طَلَّقَكُنَّ أَن يُبْدِلَهُ أَزْوَاجًا خَيْرًا مِّنكُنَّ مُسْلِمَاتٍ مُّؤْمِنَاتٍ قَانِتَاتٍ تَائِبَاتٍ عَابِدَاتٍ سَائِحَاتٍ ثَيِّبَاتٍ وَأَبْكَارًا ﴾.

٦- ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قُوا أَنفُسَكُمْ وَأَهْلِيكُمْ نَارًا وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ عَلَيْهَا مَلَائِكَةٌ غِلَاظٌ شِدَادٌ لَا يَعْصُونَ اللَّهَ مَا أَمَرَهُمْ وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ ﴾ .

٧-﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَعْتَذِرُوا الْيَوْمَ إِنَّمَا تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ .

ومثلما يلاحظ «محمد أسد» فإن هناك العديد من الروايات المتضاربة بشكل جوهرى - وبالتالى فلا تحوز هذه الروايات الاطمئنان الكامل على صحتها - عن السبب الصحيح أو الأسباب الحقيقة وراء أن قطع النبى على نفسه عهدًا أو أقسم قسمًا - فى وقت ما خلال فترة إقامته فى المدينة - بأن يهجر لمدة شهر زوجاته كلهن، ولا يقيم علاقة زوجية مع أيتهن[1].

أخبر النبى إحدى زوجاته - بشىء خاص لا يتوجب إذاعته، لكنها نقلته إلى إحدى زوجاته الأخريات- . لا وجود لاتفاق على روايات يوثق بها عن فحوى الشىء الذى أذيع، أو عن كيفية استخدام هذا السر من قبل الزوجتين، لكن الآية تشير إلى أنهما لم يحفظا سرَّ النبى.

يلاحظ محمد أسد:

«أن المعنى المحمول من خلال الرواية القرآنية لهذه الواقعة ذات المعنى غير المباشر، ليس مجرد سرد لسيرة ذاتية، وإنما لاستخراج درس أخلاقى ينطبق على مجمل المواقف الإنسانية: وبالتحديد، جواز تحريم ما أحله الله، حتى وإن كان الدافع إلى مثل هذا التوجه الرغبة فى إسعاد الآخرين. إلى جانب ذلك، يوضح ذلك أيضًا بجلاء حقيقة- قد شدد القرآن عليها بشكل متكرر- أن النبى ليس إلا بشرًا، وبالتالى فهو عرضة للخطأ العابر».

تستفيد السورة أيضًا من هذه الحادثة لإبراز موضوعها الأساسى والمحورى: أن كل واحد منا - نحن البشر - مسئول مسئولية فردية عن مصيره فى الآخرة، وأنه لن ينتفع أحد من العلاقات ذات الخصوصية الحميمة مع أفضل الناس تقوى وصدق- حتى وإن كان من الأنبياء- إذا فعل ما يضره.

(١) «محمد أسد»: «رسالة القرآن» دار الأندلس- جبل طارق ١٩٨٠م، ص٨٧٥، هامش رقم (١).

لذلك تنتهى هذه السورة بضرب مثالين عن زوجتين لنبيين سابقين (زوجة نوح، وزوجة لوط) لم تشفع لهما العلاقة الزوجية، ولم تأخذ بيديهما إلى النجاة، وعلى النقيض مثال «آسية» (امرأة فرعون) التى تمثل نموذجًا للوعى الإيمانى بالله، على الرغم من أن زوجها هو نموذج للشر المطلق. يمثل نموذج السيدة مريم (أم عيسى) أفضل عباد الله والأم التى بدون زوج المثل الأخير فى هذه السورة.

يبرز السؤال السابق - وهو محق- أن مثل هذا النوع من سوء التفاهم الذى حدث بين النبى ﷺ وبين زوجاته، علاوة على الخطأ فى إصدار الحكم، هو من الأمور الشائعة والتى يتوجب التغاضى عنها وغفرانها، لكن ذلك هو بدقة السبب الذى يجعل هذا المثال مرتبطًا بموضوعنا بشدة. يتضمن القرآن العديد من الصور الصارخة من الذين حظروا وحرموا ما أباحه الله، كما زعموا فلاحهم ونجاحهم نتيجة لانتسابهم وليس لعملهم، فتنفى هذه السورة ذلك وتؤكد على أنه ينبغى علينا ألا نحرم ما أحله الله وألا ندعى لأنفسنا أفضلية نتيجة لحسبنا وانتسابنا لطائفة ما.

قد يبدو من النظرة الخاطفة الأولى أن توقيت هذا الوحى مناسب للغاية مما يوفر الدعم للفكرة القائلة بأن «محمدًا» قد اخترع القرآن لخدمة احتياجاته الشخصية، لكن التفكير الأعمق يؤدى للمنطق المناوئ لتلك الفكرة. أولاً: تبدأ السورة بتوجيه النقد إلى النبى ﷺ، فإذا كان النبى يميل إلى اختلاق وحى لخدمة ذاته فلماذا يبدأ بعتاب إلهى موجه إليه[1]؟ وكان يمكن للنبى ألا يذكر الآية الأولى ويبدأ بالآية الثانية. ثانيًا: معظم الناس- والعرب على وجه الخصوص- يستنكفون عن إشاعة خلافاتهم العائلية على الملأ. وعلى الرغم من أن نشر الغسيل الخاص بامرئ ما فى الولايات المتحدة قد أصبح مقبولاً إلى حد ما، فالفضل - إن صح التعبير- يرجع فى ذلك فى جزء منه إلى عروض التحادث التليفزيونية، لكن ذلك يمثل ظاهرة حديثة للغاية، وهى ظاهرة يصعب إلى حد كبير العثور عليها داخل العالم العربى أو الإسلامى، سيكون الأمر غير مألوف للغاية بالنسبة إلى قائد

(١) ينبغى لنا الإشارة إلى أن عددًا من الآيات التى تتعلق بالنبى شخصيًا، تصحح من أفعاله.

عربى -وبخاصة إذا كان مشهوراً بتحفظه مثل النبى- أن يذيع على الملأ مشاكله الشخصية. وبالفعل فإن رواة سيرة النبى قالوا بأن النبى لم يناقش هذه المسألة حتى مع أشد صحابته التصاقًا به وهما أبو بكر وعمر، على الرغم من أنهما والدا زوجتيه اللتين ذكرناهما آنفًا. أخيرًا: ينبغى لنا الإشارة إلى أن الوحى الخاص بهذه السورة لا يمكن تشخيصه بوصفه نفعيًا أو تغلب عليه المنفعة الذاتية، حيث تتوافق المصادر التاريخية على أن الوحى لم ينزل على الرسول إلا بعد انتهاء الحادث، أما إذا كان الرسول يخترع الوحى، فإنه حينئذ يكون فى مقدوره أن يحل هذه المشكلة فى وقت مبكر للغاية عن طريق التحايل المناسب، بالنص الذى يراه.

يذكر السؤال السابق أيضًا الآية (٣٧) من سورة الأحزاب، والتى مَثَّل تفسيرها نقطة اختلاف رئيسية بين المستشرقين وبين علماء المسلمين منذ أوائل القرن العشرين، يتفق كل المفسرين على أن الآية تشير إلى الزواج المضطرب الذى كان قائمًا بين «زيد» (الذى أعتقه النبى ﷺ ثم تبناه) وبين «زينب» (ابنة عمة النبى والشريفة القرشية). تقول الآية:

﴿ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِى فِى نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَىٰ زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَىْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِى أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولاً ﴾ [الأحزاب: ٣٧].

يرى معظم المستشرقين فى هذه الآية الدليل على أن النبى قد يلجأ إلى أية وسيلة لإشباع رغباته الحسية، ويستندون إلى ما جاء فى طبقات ابن سعد[١] من الرواية:

«أخبرنا محمد بن عمر قال: حدّثنى عبد الله بن عامر الأسلمى عن محمد بن يحيى بن حبان قال: جاء رسول الله ﷺ، بيت زيد بن حارثة يطلبه وكان زيد إنّما يقال له زيد بن محمّد، فربّما فقده رسول الله ﷺ، الساعة فيقول: أين زيد؟ فجاء منزله يطلبه فلم يجده. وتقوم إليه زينب بنت جحش زوجته فُضُلاً (أى متبذلة فى

(١) انظر كتاب الطبقات الكبير لمحمد بن سعد الجزء العاشر، ص (٩٩) - مكتبة الخانجى - ٢٠٠١م

ثياب مهنتها) فأعرض رسول الله ﷺ، عنها فقالت: ليس هو ها هنا يا رسول الله فادخل بأبى أنت وأمى. فأبى رسول الله ﷺ أن يدخل، وإنّما عجلت زينب أن تلبس لما قيل لها رسول الله ﷺ على الباب، فوثبت عجلى فأعجبت رسول الله، فولى وهو يهمهم بشيء لا يكاد يفهم منه إلا ربما أعلن: سبحان الله العظيم سبحان مصرّف القلوب. فجاء زيد إلى منزله، فأخبرته امرأته أن رسول الله أتى منزله. فقال زيد: ألا قلت له أن يدخل؟ قالت: قد عرضت ذلك عليه فأبى. قال: فسمعت شيئًا؟ قالت: سمعته حين ولى تكلم بكلام ولا أفهمه، وسمعته يقول: «سبحانَ الله العظيم سبحان مصرف القلوب». فجاء زيد حتى أتى رسول الله فقال: يا رسول الله بلغنى أنك جئت منزلى فهلا دخلت؟ بأبى أنت وأمى يا رسول الله لعل زينب أعجبتك فأفارقها. فيقول رسول الله: أمسك عليك زوجك. فما استطاع زيد إليها سبيلاً بعد ذلك اليوم. فيأتى إلى رسول الله فيخبره فيقول رسول الله: أمسك عليك زوجك، فيقول: يا رسول الله أفارقها؟ فيقول رسول الله: احبس عليك زوجك[1].

من ذلك، ومن الآية السابقة، استدل المستشرقون على أن افتتان النبى الفجائى بزينب لم يترك مهربًا لابنه بالتبنى إلا بطلاق زوجته من أجل أن تصبح فى متناول النبى الذى اخترع الوحى من أجل إسكات الاحتجاجات المحتملة.

لسنا فى حاجة إلى القول إن رد فعل المسلمين يقدم نسخة مغايرة تمامًا لهذه الحوادث. ففى المقام الأول رواية رؤية النبى ﷺ لزينب فى ثياب كاشفة ليست

---

(١) محمد بن عمر بن واقد الواقدى الأسلمى، أبو عبد الله المدنى، قاضى بغداد، مولى عبد الله بن بريدة الأسلمى. قال البخارى ومسلم: متروك الحديث. وقال الإمام أحمد: كذاب. وقال ابن معين: ضعيف، وقال مرة أخرى: ليس بشيء. وقال علىّ بن المدينى: لا أرضاه فى الحديث ولا فى الأنساب ولا فى شيء.
عبد الله بن عامر الأسلمى، كان من قراء القرآن. قال أحمد بن حنبل وأبو زرعة الرازى وأبو حاتم والنسائى: ضعيف. وقال يحيى بن معين: ليس بشيء، ضعيف الحديث. وقال البخارى: يتكلمون فى حفظه. وأسند محمد بن يحيى بن حبان القصة لنفسه، فقال: جاء رسول الله ﷺ ... إلخ، وهو لم يدرك النبى ﷺ فهى منقطعة لا اتصال فيها إلى جانب ضعف رواتها (محمد، وعبد الله).
أضف لكل ما سبق التكلف الواضح فى رواية ابن سعد.

صحيحة، ولا يؤيدها العقل، فهى لن تسمح لأحد أن يراها فى ثياب كاشفة، وهذا هو المعروف والمنقول والممارس حتى اليوم فى البلاد العربية، إضافة إلى ذلك تتناقض الرواية مع معظم الروايات التاريخية التى تتحدث عن الطلاق بين «زيد» و«زينب»، يؤكد علماء المسلمين على أن النبى قد مهد لهذا الزواج تأكيداً لفكرة التخلص من الحاجز العربى القديم الذى يمنع العبد أو حتى من كان عبداً من الزواج بامرأة حرة أو من الحرائر[1]. تتحدث السنة عن أن «زينب» وأخاها كانا ضد هذا الزواج من أول الأمر، لكن رغم الاختلاف مع النبى ومع الكثير من التحفظات، فقد وافقت زينب وأخوها فى النهاية على هذا الزواج. وكان الزوجان على شفير الطلاق فى العديد من المناسبات، ولكن النبى ﷺ أقنعهما بالحفاظ على الزواج وبعدم الانفصال. وفى الواقع، وبعد عدد من سنين الخلاف الزوجى، طلق «زيد» «زينب» وتزوجها النبى بعدها بقليل. وفى حين أشار القرآن إلى أن الهدف الإلهى من زواج «زينب» بالنبى كان هو «بيان أن - وعلى النقيض مما اعتقده الوثنيون العرب- علاقة التبنى لا تستوجب أية قيود على الزواج مثل تلك التى تترتب على علاقات الأبوة- البنوة الفعلية والبيولوچية»[2]. كما أنها أتاحت للرسول «تعويض زينب عن تعاستها السابقة»[3].

يتأسس كلٌّ من التفسير الذى قدمه المستشرقون، والذى رد به المسلمون على تعاملهم مع النصوص المختلفة. وعلى الرغم من أننى لا أقدر على الادعاء بأننى مراقب محايد، لكننى أشعر بالفعل بأن تفسير المسلمين هو الأكثر اتساقًا. إن الفكرة التى تنادى بأن نظرة خاطفة غير مقصودة قد أشعلت فجأة ولهًا «بزينب» فى قلب النبى، هى فكرة لا تتماشى مع المصادر الأخرى التى يقبل بها المستشرقون. تصرح هذه المصادر بأن «زينب» كانت ابنة عمة النبى من شقيقة فعلية لأبيه، وبذلك فقد

(١) لقد وجدت فى الخليج العربى فى أيامنا هذه والذى كانت العبودية موجودة به إلى ما لا يزيد عن أربعين عامًا مضت، أن الزواج من عبد سابق أو من نسل عبد سابق ما زال يعتبر وصمة عار.

(٢) كما لا تحوز هذه العلاقة على نفس الالتزامات القانونية. يرتبط هذا التأكيد مع الآيات الافتتاحية للسورة التى تناقش العلاقات الاجتماعية التى من صنع الإنسان.

(٣) محمد أسد «رسالة القرآن» دار الأندلس، جبل طارق ١٩٨٠م، ص ٦٤٦، هامش رقم ٤٧.

كان النبى يعرفها منذ كانت طفلة، وكان على اتصال وثيق بها وبعائلتها عندما كانت صبية يافعة وذلك قبل وقت طويل من أمر القرآن للنساء بأن يراعين الحشمة فى لباسهن، أى أن الفرصة كانت وظلت مواتية للزواج منها وهى عذراء، خاصة أنها كانت مشهورة بجمالها الأخاذ. إن الفكرة القائلة بأن نظرة لحظية استوجبت أن يصبح قلب النبى ﷺ مفتونًا «بزينب»، والتى كان النبى على علاقات وثيقة بها طوال حياتها تتناقض مع الطبيعة البشرية.

إننى لا أجادل بالقول بأن النبى لم يجد زينب فاتنة وجذابة، حيث يصرح التراث بأن كل من اقترب منها قد أخذه جمالها، لكننى أؤكد فقط على أنه من غير المنطقى أن النبى أخذ بجمالها فقط فى اليوم الذى كان يتفقد فيه «زيدًا» ولم يجده. وحتى الآن فإن قضية المستشرقين تعتمد على هذه النقطة حرفيًا، حيث لو لم يبهره جمالها، فإن قضيتهم سوف تنهار بالكلية، لكن من جانب آخر فلو أن النبى كان على الدوام متقبلاً لحسنها الأخاذ، عندها فإن محاولتهم لإظهار النبى بوصفه شهوانيًا تتداعى إلى شظايا مرة أخرى، بسبب أنه قد فوت فرصة الاقتران بزينب ومهد بدلاً من ذلك لزواجها من «زيد».

دعوى المسلمين بأن النبى ﷺ زوج هذا الثنائى انطلاقًا من فكرة تحطيم الحواجز الطبقية هى دعوة غير متكلفة. كان النبى بكل تأكيد على دراية بالتمييز الطبقى المتطرف للعرب، والمتأصل إلى يومنا هذا. كان تأثير هذا التمييز من القوة إلى الدرجة التى جعلت بعض فقهاء المسلمين يعتبرون من المحرم على امرأة مسلمة أن تتزوج من طبقة أدنى من طبقتها، على الرغم من الوصايا القرآنية العديدة، وكذلك الأحاديث النبوية التى تؤكد على المساواة بين جميع المؤمنين. سجل المؤرخون أيضًا أن شرف ونسب «زينب» والمستوى الاجتماعى المنخفض «لزيد» كانا من نقاط الاشتعال الدائمة فى حياة الزوجين. لا بد أن تناقض هذا الزواج مع التقاليد المتجذرة فى الأعماق قد أثار دهشة العرب، ومن المؤكد أن الكثير منهم - وبخاصة أصحاب معارضة النبى - قد قدروا حتمية انفصام عرى هذا الزواج. ولابد أيضًا أن النبى كان واعيًا بالأثر الرمزى لهذا الزواج، وأن هذا الزواج قد ارتفع بوصفه واحدًا

من العلامات العظيمة على درب نظام المساواة الذى كان النبى يبشر به، وعلى كل الاحتمالات فإن فشل هذا الزواج هو ما حاول النبى منعه عندما قال لزيد ﴿**أمسك عليك زوجك واتق الله**﴾ لكن مهما كانت النوايا نبيلة وطيبة، فلا ينبغى إعاقة الأفراد عن ممارسة الحقوق التى وهبهم الله إياها، وكانت «زينب» وكان «زيد» قد وصلا إلى النقطة التى لا رجوع عنها. لذلك جاء العتاب ﴿**وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ**﴾ [الأحزاب: ٣٧].

تتشارك هذه الآية فى العديد من المظاهر مع الآية الأولى التى ناقشناها. تتخذ الآيتان من الحوادث اليومية للحياة الشخصية للنبى مجالاً لبيان عدد من المبادئ، كما توضح كلاهما بشرية النبى، إضافة إلى أن الآيتين توجهان العتاب إلى النبى وتوجهانه إلى الصواب. وبالإشارة إلى الآية الأخيرة روى عن عائشة أنها قالت: «لو كان النبى ﷺ كاتمًا شيئًا من الوحى لكتم هذه الآية ﴿وإذ تقول للذى..﴾[1]».

وأخيرًا ينبغى الإشارة إلى أن الوحى هنا مثله مثل فى سورة التحريم، الآيات [١-٧]، نزل بعد أن وصلت المشكلة الرئيسية التى نزل من أجلها إلى نقطة نهايتها (كان «زيد» قد طلق «زينب» بالفعل) لذلك لا يمكن وصفها وصفًا سليمًا بالقول بأن الله قد سارع فى تقديم العون لمحمد.

السؤال الحادى عشر: (من امرأة مهاجرة مسلمة فى أواخر العشرينيات من عمرها)

«لم أكن على علم إلى وقت قريب بأن القبلة الأصلية التى يتوجه إليها المؤمنون كانت القدس، ثم تغيرت بعدها لتصبح مكة. وبعد دراسة قليلة للقرآن ومناقشة هذا الأمر مع الإمام اكتشفت أن ذلك الأمر حقيقى. أفضى هذا الأمر إلى بعض التشوش لى. لماذا يختار الله قبلة للصلاة فى المبتدأ ثم يغيرها بعد ذلك بقبلة أخرى؟.

أحد التفسيرات التى سمعت بها هو أن النبى أراد أن يشعر اليهود بنوع من «الراحة والألفة» إذا تضمن هذا الدين الجديد جزءًا من ديانتهم الخاصة، فيصبح من

---

(١) وردت هذه الرواية فى صحيح البخارى وصحيح مسلم.

اليسير عليهم اعتناق هذا الدين؛ لذلك جُعلَتْ القدس هى القبلة. مع ذلك، عندما لم يظهر اليهود أى اهتمام باتّباع النبى تغيرت القبلة لتصبح مكة.

أثار ذلك مرة أخرى سؤالاً فى نفسى. لماذا يجعل الله أو النبى من القدس قبلة لمجرد إرضاء اليهود، وبعدها وبدافع من الغضب (أو على الأقل فإن التفسير الذى سمعته يشى وكأنه صادر عن الغضب) تتغير القبلة لتصبح مكة؟ فى كتابك «نضال من أجل الاستسلام» ذكرت أن ذلك كان بهدف تمييز الإسلام عن الديانات الأخرى. لكن لماذا لم يفعل ذلك منذ البداية بجعل مكة هى القبلة؟».

***

ينص القرآن على تغيير القبلة فى سورة البقرة ﴿ سَيَقُولُ السُّفَهَاءُ مِنَ النَّاسِ مَا وَلَّاهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ الَّتِي كَانُوا عَلَيْهَا قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ (١٤٢) وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ (١٤٣) قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ (١٤٤) وَلَئِنْ أَتَيْتَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ بِكُلِّ آيَةٍ مَّا تَبِعُوا قِبْلَتَكَ وَمَا أَنتَ بِتَابِعٍ قِبْلَتَهُمْ وَمَا بَعْضُهُم بِتَابِعٍ قِبْلَةَ بَعْضٍ وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم مِّن بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذًا لَّمِنَ الظَّالِمِينَ (١٤٥) الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْرِفُونَهُ كَمَا يَعْرِفُونَ أَبْنَاءَهُمْ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنْهُمْ لَيَكْتُمُونَ الْحَقَّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ (١٤٦) الْحَقُّ مِن رَّبِّكَ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ (١٤٧) وَلِكُلٍّ وِجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّيهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمُ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ (١٤٨) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَإِنَّهُ لَلْحَقُّ مِن رَّبِّكَ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٩) وَمِنْ حَيْثُ خَرَجْتَ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ إِلَّا الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنْهُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِي وَلِأُتِمَّ نِعْمَتِي عَلَيْكُمْ وَلَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴾ [البقرة: ١٤٢-١٥٠].

ولا يظهر من الآيات أن الاتجاه الأول إلى بيت المقدس، كان بوحى من الله.

وهناك تفسيرات متعددة للآيات السابقة، وعن المدة التى استقبل فيها الرسول ﷺ بيت المقدس وتحول بعدها إلى البيت الحرام، والسبب فى ذلك(*).

وكل تلك التفسيرات والروايات موقوفة على الراوى، ولا تُرفع للرسول ﷺ. أما افتراض أن الرسول ﷺ غيّر اتجاه القبلة عندما لم يتبعه اليهود، فهو من قول المستشرقين.

والسؤال عن لماذا لم يختر الله البيت الحرام كقبلة منذ البداية؟ فليس بمقدور أحد الجزم بإجابته.

يمكننا فقط البحث والاستقصاء والاستقراء، ولكن ليس أكثر. وبالنسبة لى، فالأمر الجدير بالملاحظة هو التبكير فى تحديد البيت الحرام كقبلة، وليس التأخير فى ذلك. فقد أسس القرآن للمسلمين قبلتهم فى وقت كانت تلك القبلة - البيت الحرام- تحت سيطرة عبدة الأوثان، أعداء الإسلام وأعداء محمد ﷺ، وفى وقت كان المسلمون قلة مستضعفة من مئات قليلة، فرت بدينها من مكة - حيث القبلة الجديدة - وكان أعداء الإسلام، قريش وكل من يتبعهم فى الجزيرة العربية، هم القوى الكبرى التى لا يرى أحد فى ذلك الوقت إمكانية تحولهم للإسلام. ومع هذا نزل القرآن فى ذلك الوقت يأمر المسلمين بالتوجة فى الصلاة نحو البيت الحرام.

لا يبدو فى الأمر غرابة، اليوم فقط، والبيت الحرام يسكنه المسلمون، ولكن ماذا كان يحدث لو لم يُسلم أهل مكة، وبقيت قبلة المسلمين تحت سيطرة غير المسلمين من عبدة الأوثان؟

بالنسبة لى، تحويل القبلة إلى البيت الحرام فى مكة فى ذلك التوقيت، دليل على المصدر الإلهى للوحى القرآنى.

ينص القرآن فى آيات سورة البقرة: ﴿**وَإِذِ ابْتَلَىٰ إِبْرَاهِيمَ رَبُّهُ بِكَلِمَاتٍ فَأَتَمَّهُنَّ قَالَ إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا قَالَ وَمِن ذُرِّيَّتِي قَالَ لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ (١٢٤) وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيْتَ مَثَابَةً**

(*) راجع تفسير الطبرى للآيات المذكورة، نقلاً عن ابن عباس وعكرمة والحسن البصرى والربيع عن أنس، وغيرهم.

لِلنَّاسِ وَأَمْنًا وَاتَّخِذُوا مِن مَّقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلًّى وَعَهِدْنَا إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ أَن طَهِّرَا بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْعَاكِفِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ (١٢٥) وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَٰذَا بَلَدًا آمِنًا وَارْزُقْ أَهْلَهُ مِنَ الثَّمَرَاتِ مَنْ آمَنَ مِنْهُم بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ قَالَ وَمَن كَفَرَ فَأُمَتِّعُهُ قَلِيلًا ثُمَّ أَضْطَرُّهُ إِلَىٰ عَذَابِ النَّارِ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ (١٢٦) وَإِذْ يَرْفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٢٧) رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ (١٢٨) رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ (١٢٩) وَمَن يَرْغَبُ عَن مِّلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَن سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ (١٣٠) إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٣١) وَوَصَّىٰ بِهَا إِبْرَاهِيمُ بَنِيهِ وَيَعْقُوبُ يَا بَنِيَّ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ لَكُمُ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ (١٣٢) أَمْ كُنتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِن بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَٰهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٣) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ (١٣٤) وَقَالُوا كُونُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ تَهْتَدُوا قُلْ بَلْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٣٥) قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنزِلَ إِلَىٰ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَمَا أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ (١٣٦) فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنتُم بِهِ فَقَدِ اهْتَدَوْا وَّإِن تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ (١٣٧) صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً وَنَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ (١٣٨) قُلْ أَتُحَاجُّونَنَا فِي اللَّهِ وَهُوَ رَبُّنَا وَرَبُّكُمْ وَلَنَا أَعْمَالُنَا وَلَكُمْ أَعْمَالُكُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُخْلِصُونَ (١٣٩) أَمْ تَقُولُونَ إِنَّ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطَ كَانُوا هُودًا أَوْ نَصَارَىٰ قُلْ أَأَنتُمْ أَعْلَمُ أَمِ اللَّهُ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن كَتَمَ شَهَادَةً عِندَهُ مِنَ اللَّهِ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ (١٤٠) تِلْكَ أُمَّةٌ قَدْ خَلَتْ لَهَا مَا كَسَبَتْ وَلَكُم مَّا كَسَبْتُمْ وَلَا تُسْأَلُونَ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ [البقرة: ١٢٤ - ١٤١] على أن الإسلام هو

(١) «محمد أسد» «رسالة القرآن».

استعادة الإيمان الإبراهيمى، وعلى أن إبراهيم وإسماعيل قاما ببناء الكعبة كبيت لعبادة الله، وعلى هذا فاختيار الكعبة قبلة للمسلمين، يؤصل جذور الإيمان الإبراهيمى فى الإسلام. وقد كان يمكن لعبدة الأوثان المعادين للإسلام أن يحاجوا محمداً ﷺ: لماذا لا يتجه المسلمون لكعبة إبراهيم إذا كانوا يؤمنون بمثل ما آمن به؟

ويحتمل أن يكون ذلك ما أشار إليه القرآن قائلاً ﴿لِئَلاَّ يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَيْكُمْ حُجَّةٌ﴾ [البقرة: ١٥٠].